سيكولوجية الضمير

تأليف

محمد كامل النحاس

الكتاب: سيكولوجية الضمير

الكاتب: محمد كامل النحاس

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

النحاس ، كامل ، محمد
سيكولوجية الضمير / محمد كامل النحاس
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٢٧ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٠ – ٨٨ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٦٦٢ / ٢٠٢٠

سيكولوجية الضمير

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

هذا بحث في سيكولوجية الضمير الإنساني: ما هو؟ وكيف يتكون؟ وكيف يؤثر في سلوك الإنسان وأخلاقه؟ كنت قد ألقيته في أربع محاضرات عامة في قاعة دار المعلمين العالية ببغداد في شهر إبريل الماضي. وقد طلب إلي الكثيرون ممن حضروا هذه المحاضرات أو سمعوا بها أن أنشرها في كتاب، وشجعني زملائي الأفاضل على ذلك، وأخص بالذكر منهم صديقي الدكتور متى عقراوي المدير العام للتعليم العالي في وزارة المعارف العراقية، والدكتور عبد الحميد كاظم عميد دار المعلمين العالية في بغداد.

وقد أردت نشر المحاضرات كما ألقيتها دون تغيير أو تبديل، اللهم إلا وضعها في صورة كتاب بدلًا من صورة محاضرات، وذكر بعض المصادر التي استعنت بها في القيام بهذا البحث.

وإني لأرجو أن يكون في نشر هذا البحث الفائدة التي أتوخاها، وبخاصة في هذه الظروف الاجتماعية التي تلت الحرب العالمية، والتي تترنح فيها المجتمعات الشرقية تحت ضغط من مختلف العوامل والموجات التي تزحف إليها من بقاع كثيرة من العالم، والله تعالى ولي التوفيق.

المؤلف

الباب الأول

سيكولوجية تكوين الضمير

مقدمة:

ليس من شك في أن الحياة الاجتماعية في كثير من بقاع العالم حياة كئيبة محزنة، فلقد صب الإنسان نيران الويلات على رأسه، وها هو يقف الآن كالصيد في الفخ يدور فيه حائرًا متحيرًا، ثم يقدح زناد فكره للتخلص منه وإطلاق سراح روحه الحبيسة المكبلة، ولكن الفخ معقد التعقيد كله. واحسرتاه للإنسان الغرور! لقد نسج خيوطه من قبل بنفسه، ثم ها هو اليوم لا يدرك ما نسج في أمسه. أغراه ما صنع، وهاله ما أبدع، فشرد لبه وجمح قلبه، وإذا بالخيوط تتشابك حوله، فتزيد هوله، وإذا به محصور محسور يدب القلق في أوصاله، ويغمره الغيظ في نضاله، فيزداد موقفه حرجًا، ويعمى عن أن يجد في قفصه مخرجًا.

ماذا دهى الإنسان؟ أكلما زاد عقله نورًا خطف ببصره النور، فترنح في الحياة وتخبط واضطرب؟ وكلما زاد النور لألاءً عمي عن الطريق القويم، وضل عن الصراط المستقيم، وزلت قدماه، واختل توازنه في الحياة؟ لماذا يصير النور لهيبًا مشتعلًا، ويصبح الضياء جحيمًا مندلعة، يحرق في جسمه ونفسه، ويكوي قومه وبني جنسه؟

ما هذه الحروب التي تسيل الدماء فيها بحورًا زاخرة؟ ما هذه

الوحشية الثائرة الكاسرة؟ ما هذه الحقود الفائرة الكافرة؟ ما هذه الحياة الحيوانية الكاشرة السافرة؟ حقًا لقد اختل البشر فأصبحوا بحاجة إلى هدى يرجع إليهم توازنهم، ويحيل شرهم خيرًا، وعسرهم يسرًا.

لا بد لهذه الفوضى الخلقية التي انغمس فيها الفرد والمجتمع من تشخيص وعلاج، علّ ذلك يُرجع الوحش إنسانًا يشع الرحمة في الحياة، وعلّ القلوب التي تحجرت على الشر والبغضاء تلين قناتها، وتصبح ينابيع خير وإخاء، فتنشر السعادة أجنحتها على الكون.

علم النفس والأخلاق:

لقد سلط علم النفس أضواءه على هذه الفوضى الأخلاقية، واستطاع أن يكشف القناع عن جزء غير قليل منها: عن أسبابها وطرق علاجها. ولعل البعض يتساءلون ما لعلم النفس وهذه المشكلة الكبرى؟ ما لهذا العلم الحديث الذي لم يستقر بعد استقرارًا كبيرًا، يعمل على أن يغوص في ملمة الحياة العظمى، وهو لا يزال رطب العود محدود الجذور، ضيق الظل، قليل الثمر؟

والجواب على هذا، إنه العلم الوحيد الذي أخذ على عاتقه أن يبحث في عقل الإنسان ودوافعه ونزعاته، ما هى، وكيف تتطور، وكيف تتأثر، وكيف تتفاعل وتتغير. والأخلاق إنما هي بناء على أساس من تلك الدوافع والنزعات البشرية، فمن الخير أن نصيب في دراستها مما جنى هذا العلم مهما كان محدودًا قليلًا.

لم يقل أحد من الناس –عندما كان علم الطب في بدايته– ألا ننتفع

من بحوثه حتى يكبر ويكمل، بل أخذ الناس بالإفادة منه، وكلما نما زاد انتفاعهم به. ثم أي علم وصل إلى كمال؟ بل أي علم يصل إلى كمال؟ إن من واجب الإنسان ومن حقه أيضًا أن ينتفع بأية معرفة يصيبها مهما كانت ضئيلة يسيرة، إن ذلك ليوسع أيضًا من آفاق المعرفة، فتزداد فائدتها، ويعم نفعها.

وعلم النفس الذي يتصل اتصالًا وثيقًا بالإنسان كما بيَّنا، لا يطيق أن يرى مأساته الخلقية ثم يقف مكتوف اليدين أمامها. لقد نشر علماء النفس ما وصلوا إليه من معرفة فامتزجت بمناحٍ كثيرة من الحياة الإنسانية، وكانت بلسمًا لكثير من عللها وجناح رحمة، فكم أفادت التربية من هذا العلم الحديث، وكم أفاد الطب منه. فلماذا إذن لا تفيد الحياة الأخلاقية للفرد والمجتمع منه أيضًا؟

وكان أكثر من بحث في الأخلاق علماء التحليل النفسي[1]، وليس من عجيب في ذلك، إذ إن التحليل النفسي بدأ أول ما بدأ طريقة للعلاج النفسي، تهدف إلى أن ترفع ما في أعماق المريض من دوافع وأفكار ونزعات ورغبات دفينة وقديمة، حتى تظهر سافرة على مسرح حياته الشعورية، وتندمج ثانية في تيارها ومجراها، إذ وجد العلماء أن لهذا أثرًا عظيمًا في العلاج، ومعنى هذا أن زيادة إدراك المرء لما يجري في عقله أمر مرغوب فيه، بل إنه بمثابة وقاية له من المتاعب والأمراض النفسية، وبعض الأمراض الجسمية. وبمعنى آخر أيضًا إنه ليس من الصحة العقلية

---

(1) مدرسة التحليل النفسي school of Psycho- analysis لمؤسسها سيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦– ١٩٣٩).

والنفسية في شيء أن يتباعد ما بين شعور المرء، والكثير من رغباته ودوافعه وعواطفه ومشاعره، وذلك بكبتها ودفنها في قرارة العقل الباطن، حيث تكون هناك مثل الميكروبات الخفية تنهش في شخصيته، وتسمم آراءه ورغباته الشعورية، وتلوي سلوكه وأفعاله، وتقعده عن أمانيه وآماله، وتجعله يستغرق في أحلامه وخياله، وقد تحيله إلى مجرم عتيد في الإجرام.

إن التحليل النفسي يؤدى بالمرء لأن يجابه طبيعته، ويحاول أن يعبر عنها ولو بالألفاظ. إنها لتماثل طريقة الاعتراف التي تتطلب من الفرد أن يفكر في ذنوبه وخطاياه، ويستشعرها ويعترف بها لنفسه أو ربه، أو غيره من يستطيعون أن يعاونوه في أن يشق لبواعثها بعد ذلك سبلًا غير سبل الإثم والخطيئة. وإنها لتقف على طرفي نقيض مع طريقة الضبط الخلقي، التي بها يحاول الإنسان أن يزيح عن شعوره كل الأفكار والمغريات التي قد تتعارض مع هذا الضبط. ولقد ازدادت شقة الخلاف بين التحليل النفسي والضبط الخلقي عندما كشف الأول عن أمرين هامين، أولهما: أن مكنونات العقل الباطن البعيدة عن شعور الإنسان غالبًا ما تكون من نوع غير خلقي، أو على الأقل تتصل بما هو منافٍ للأخلاق، أي غالبًا ما تكون من النوع الذي يتعارض مع المعايير الأخلاقية العامة بالنسبة للمجتمع، أو الخاصة بالفرد.

وثانيهما: أنه وجد في العقل قوة لا شعورية في الغالب، تعمل على مقاومة هذه المكنونات، ومنعها من أن تظهر في شعور الإنسان. والتحليل النفسي بصفته طريقة، يحاول التغلب على هذه المقاومة، وتخفيف قوة المنع والكبت هذه إلى أقصى حد. وإذا كنا نسلم بأن

مكنونات العقل الباطن هي من نوع غير خلقي أو من نوع شرير فلا بد إذن أن تكون هذه القوة الكابتة المانعة اللا شعورية منتمية إلى النظام الأخلاقي؛ ومن أجل هذا أطلق عليها اسم الرقيب.

وليس من العسير الآن أن ندرك السبب الذي من أجله اتهم التحليل النفسي بأنه طريقة غير أخلاقية، أليس هدفه أن يزيل تلك القوة اللا شعورية الرقيبة على الرغبات والنزعات والأفكار، المنافية للأخلاق، حتى تتفجر هذه إلى أعلى وتصب في شعور الإنسان؟ ماذا يبقى من الخير للإنسان بعد أن تدب تلك الرغبات والنزعات الشريرة في حياته الشعورية؟ ماذا تفعل به وبالمجتمع؟ ألم يقل فرويد إن الحواجز التقليدية التي تقيمها المعايير الخلقية هي أعظم وأشد مما تتحمله الطبيعة البشرية؟[1] ثم ألم يكن لهذا أثر بعيد المدى لدى بعض الناس وبعض الجماعات، ونادى عدد من المتحمسين المبالغين منهم بوجوب تجنب أي ضبط أو ردع، بل وأي تنظيم لدوافع الإنسان في أثناء تنشئته؛ مخافة أن يؤدي ذلك إلى كبتها، وظهور أعراض الشذوذ والعصاب عليه نتيجة لذلك؟ ولكن المحلل النفسي يفند تلك الاتهامات، بأن يبين للناس أن مهمته الرئيسية، هي معالجة الأمراض النفسية، وتفهم طبيعة المشكلات والمتاعب التي يواجهها الفرد، والتعرف على أصولها وأسبابها، وأنه يسرد ما يراه ويقف عليه، ويقرر ما يلاحظه ويصل إليه، وأنه عندما يفعل ذلك لا يخطر بباله مطلقًا أن يعارض التقاليد والأنظمة الخلقية السائدة، وأن الكشوف التي قام بها نتيجة بحوثه المستفيضة، قد بينت فوق ذلك أن

(1) Collected Papers II. by S. Freud

الأمراض العصبية والنفسية ليست إلا نتاج فشل فرائسها من الناس في القيام بضبط خلق صحيح، مما يتمخض عن عجز وشقاء وفوضى في الأخلاق، وأنه بصفته معالجًا، يبذل جهده في أن يكون في المريض وجهة نظر جديدة نحو الحياة، تجعله أكثر تعاونًا فيها، وأنسق انسجامًا مع المجتمع وما يضمه من أنظمة وتقاليد.

إن هؤلاء الذين يستندون إلى التحليل النفسي لينادوا بأن الكبت جميعه شر، وأن التقاليد والآداب العامة التي تؤدي إلى بعض الكبت عرقلة في سبيل تقدم الجنس البشري= إنما هم قوم لم يفهموا التحليل النفسي تمام الفهم، ولم يتبينوا ما تنطوي عليه تعاليمه من خير للفرد والمجتمع، وليس الذنب ذنبه في هذه الآراء المتطرفة المغلوطة التي ينادي بها هؤلاء، والتي قد يوحي بها أيضًا تابعون مبالغون لبعض مدارس التحليل، ينظرون في الغالب إلى الحياة نظرة فلسفية خاصة بهم (وما أكثر الفلسفات الخاصة الضارة الآن) لا يمكن أن يقرهم عليها أيضًا علماء التحليل الأصليين. وإلا فما ذنب الكيماوي الذي كشف عن علاج لمريض، يرجع إلى أعضائه المقلقل اتزانها، وإلى صحته المختلة قوتها وسلامتها، على أن يتناول من ذلك العلاج بمقدار، فإذا بمتحمس أحمق، يعطيه أضعاف المقدار المحدد مرة واحدة، فيزداد بذلك انحلال أعضائه، وتنافر قواه الصحية، ويزلف إليه الخراب والدمار والفناء.

حقًا لقد كشف التحليل النفسي عن أن بعض الطرق التي تتبع في الضبط الخلقي، طرق زلقة قلقة مدمرة، وأوضح فوق ذلك بشكل لم يظهر له مثيل من قبل، أن الضمير الإنسان بصفته قوة من قوى العقل أو

النفس ليس دائمًا قوة تؤدي إلى خير كما يتبادر إلى الأذهان، بل إنها قد تؤدي إلى شر؛ ذلك لأن الرقيب أو الضمير القائم على الأخلاق، والذي هو في صراع مستمر مع الرغبات المكبوتة المنافية لها، ليس دائمًا قوة فائزة منتصرة. وقد عرف الأخلاقيون هذه الحقيقة منذ زمن؛ ولذلك اتجهت جهوده إلى تقوية الضوابط الخلقية، ولكنهم استشعروا في الوقت نفسه أن الرقيب قد يصل حدًا فظيعًا شديدًا من الضغط لدوافع الإنسان وكبتها، حتى ليقع الإنسان فريسة لأمراض عصبية مختلفة، بدلًا من أن يزداد مناعة خلقية، مثله في ذلك مثل المدرب الذي يواصل تدريب الحيوان أو الإنسان كيما يزيده قوة، فإذا بهذه المواصلة تهكه وتحطم قواه، بدلًا من أن تشد أزره، وتنشط عضده. ولم تكن ممارسة الاعتراف إلا دليلًا ضمنيًا على ضرورة اللجوء إلى التنفيس بعض الشيء عن تلك الدوافع المنافية للأخلاق، بدلًا من الاشتداد في ضغطها والاستمرار في كبتها، وقد أبان التحليل النفسي عندما اتسعت بحوثه، أن المتاعب التي تحدث من المبالغة في الكبت متاعب مؤلمة مرة؛ إذ يعمل الكبت على إيجاد هوة سحيقة بين المستوى الخلقي للرقيب، وهو في الغالب لا شعوري كما سيتبين فيما بعد، والمستوى الخلقي لشخصية الراشد الشعورية، وللمجتمع الذي يعيش في أحضانه؛ إذ يظهر الرقيب قوة جامدة جافة بعيدة عن عالم الواقع للراشد[1]، فقد يمنعه من ممارسة

([1]) إن الرقيب بصفته وريث الوالدين أو صورة لهما يفعل فعلهما من الأمر والنهي والرضا والزجر والتأنيب والعقاب دون أن يشعر الإنسان به في الغالب؛ ولذلك لا يستطيع أن يوفق بين نفسه وهذا الرقيب أو الضمير، بينما يستطيع ذلك مع والديه الحقيقيين؛ لأنه يشعر بهما، وبذلك يستطيع أن يتفاهم معهما.

مهنته التي أعد نفسه لها؛ لأنها تتصل بشكل لا شعوري بميل أو رغبة طفلية مكبوتة، وقد يشعره بالحسرة والندم وتأنيب الضمير أثناء معاشرته لزوجته؛ لأن بها شبهًا من أم أو أخت أو خالة، كبت ميله الجنسي نحوها كبتًا شديدًا من قبل، فأصبحت الزوجة بذلك صدى للذة محرمة مكبوتة يدوي من الأعماق، فيملأ حياته الشعورية رعبًا وفزعًا، وقلقًا وجزعًا.

وكذلك تبين أن الصعوبات التي يواجهها المعالج النفسي، والتي يجد ألا مفر من التغلب عليها حتى ينجح في علاجه، وحتى يستطيع أن يهيء نفسية المريض تهييئًا جديدًا، يُمكنه من أن يحيا حياة سوية سعيدة. هذه الصعوبات لا تنشأ فقط عن الغرائز بحالتها الهمجية الملحة الصارخة، التي تتعارض مع الأوضاع الاجتماعية والتقاليد والمثل الخلقية، ولكنها تنشأ أيضًا عن معارضة تلك القوى الخلقية الكابتة العنيدة العتيدة الجامدة لتلك الغرائز. وهاتان القوتان: قوة الغرائز في حالتها الهمجية الفطرية، وقوة الكبت الخلقية (الرقيب أو الضمير) في حالتها الجامدة الصارمة، تصلان إلى نوع من الاتفاق فيما بينهما، ولكنه اتفاق غريب لا يساير الواقع في شيء، إنه لقريب الشبه بالمهادنات أو المعاهدات المراوغة الفضفاضة التي وقعها غريمان متنافسان، يبيت الشر أحدهما للآخر، ويقف كل منهما بالمرصاد للآخر، عابسًا متجهمًا متحفزًا لأن يضرب ضربة مردية.

وإذا ما نجح المحلل النفسي في أن يشعر المريض بذلك الصراع الداخلي الذي يجري في أعماقه بين هاتين القوتين، ويجعله يدرك ويلمس ذلك الجزء المنقسم من عقله، المشطور إلى حزبين متعاديين، يكون قد

خطا بذلك خطوة واسعة في سبيل التوفيق بينهما؛ إذ يستطيع أن يستحث القوى التفكيرية الشعورية للمريض لأن تقوم بهذا التوفيق. ثم بشيء من الإرشاد والتوجيه أو ما يسمى بالتربية من جديد Re-education، يستطيع المحلل أن يصل بالمريض إلى حال من الاستقرار والهناءة؛ إذ تنساب في شخصيته كلتا القوتين بعد أن تصبحا وحدة متآلفة منسجمة مع شخصيته الشعورية، وبذلك تخبو تلك الحرب الضروس التي كانت تتأجج في داخل نفسه، دون أن يلمس مواقعها، أو حتى يشعر بها، بالرغم من أنه كان يكتوي بنارها، ويحترق فيها عقلًا وقلبًا، وكأنه في جحيم أبدي وسعير سرمدي يلاحقه في جميع ظروف حياته: في عمله، وفي مجتمعاته، وفي زواجه، وفي معاملته لأولاده، بل وفي نومه وأحلامه أيضًا.

نتبين من هذا أن القوة الخلقية الكابتة في نفس الإنسان، أو الرقيب أو الضمير، قد تكون مصدر متاعب له، وأنها تقف كثيرًا عقبة كأداء في سبيل العلاج بالتحليل النفسي. بل أثبت التحليل أكثر من ذلك، أن الضمير ليس دائمًا موجها كماليًا أو مرشدًا ملائكيا للإنسان كما يظن الكثيرون، بل إنه قد يزخر بالفوضى والاضطراب. وقد ركز التحليل النفسي عليه بحوثًا مستفيضة ألقت كثيرًا من الضوء على كنهه وتركيبه، وتفاعلاته وآثاره، كما ستبين ذلك فيما بعد.

تحليل النفس البشرية:

وقبل أن نأخذ الضمير بالتحليل، أرى من الواجب أن أشير إشارة

عابرة إلى طبيعة العقل أو النفس كما يراها علماء التحليل النفسي.

إن العقل أو النفس تنقسم نظريًا إلى ثلاثة أقسام: الذات السفلى أو id، وهي التي يُزود الإنسان بها في الحياة، وتحوي غرائزه في حالتها الهمجية الوحشية، وهي منبع نشاطه الحيوي، ومصدر جميع طاقاته، وهي عمياء من الناحية الاجتماعية، لا تعرف خيرًا أو شرًا، ولا تميز بين صلاح وطلاح، كل همها أن تصل إلى هدفها، محكومة في ذلك بمبدأ اللذة، أي أنها تأتي باللذة إن تحققت أهدافها، وبالألم إن وقف في سبيلها عائق. فإن أثيرت غريزة المقاتلة في الطفل الصغير الذي يتحكم في سلوكه هذا النوع من النفس في الغالب، دفعت به لأن يهدم ويحطم ويدمر ويقتل، وإن أثيرت فيه الغريزة الجنسية أرغمته على أن يحققها بأي شكل ومع أي شخص، وإن أثيرت فيه غريزة الامتلاك أو الاقتناء اضطرته لأن يخطف ويأخذ ما أثارها مهما كان، لا يهمه في ذلك أحد، ولا يعتبر أي وضع أو حكم أو قانون.

ولكن سرعان ما يستشعر الطفل أنه يعيش في هذه الحياة، وأنه جزء من هذا العالم الذي يؤثر في حواسه، ويستقبل منه انطباعات مختلفة تأتي إليه من جسمه أولًا، ثم من محيطه وبيئته، وتتحكم في حركاته الإرادية وتضبطها. وبذلك يبدأ جزء من الذات السفلى يتصل بهذا العالم الواقعي الذي يعيش فيه، ويتكون نتيجة لذلك ما يعرف بالذات أو ego، وهذه الذات معقولة بالنسبة للذات السفلى؛ إذ تسير على مبدأ الواقع والحقيقة، لا على مجرد مبدأ الذة؛ ولذلك قد يرجئ الطفل اللذة العاجلة بإرضاء غرائزه مباشرة –كما تريده الذات السفلى أن يفعل– إلى لذة

آجلة، إن وجد أن الأولى قد يتبعها ألم، أو قد تتعارض مع عالم الواقع الذي يعيش فيه. فقد يثير الأب في الطفل غريزة المقاتلة، إن عاقه عن تحقيق غرض له، ولكنه يدرك ضآلة قوته، وضعف حيلته بالنسبة لأبيه، فلا يستطيع أن يحقق الغريزة بحالتها الهمجية، من حيث إلحاحها عليه أن يعتدي على أبيه بالضرب مثلًا، فيفكر في شكل من الاعتداء يتناسب مع الواقع الذي يدركه ويستشعره، قد يكون على شكل صراخ مزعج، أو تدمير لشيء مقدر من أبيه، أو تحايل على تحقيق غرضه بشكل لا يثير الممانعة من أبيه.

وتستمد الذات قوتها ونشاطها من الذات الدنيا؛ ولذلك فهي تعمل جهدها على أن توفق بين مبدأ الحقيقة والواقع الذي يجب أن تسير عليه، ومبدأ اللذة الذي يتحكم في الذات السفلى، أي أنها تحاول أن ترضي الغرائز كما تريد الذات السفلى، ولكن بطريقة معقولة تتفق مع الواقع والحقيقة. وقد صورت العلاقة بين هاتين الذاتين بالعلاقة بين الحصان والفارس؛ فالأول مصدر الحركة ومنبع النشاط، ومدخر القوة والطاقة، ويعمل الفارس لكي ينتفع بذلك النشاط وتلك القوة، على أن يترك للحصان العنان يجري ويمرح، ولكنه يقوم بتوجيهه بالطريقة التي يراها متمشية مع الواقع، فيبتعد به عن العثرات والحفر والسبيل الوعر.

حقًا قد يجمح الحصان بصاحبه فيتلاشى سلطانه عليه، ويسير الحيوان به كيفما يشاء، فنجد الذات السفلى تخضع الذات لسلطانها في بعض الأحايين، وإذا بالإنسان يندفع لإرضاء غرائزه الهمجية دون وعي منه، ودون مقدرة على كبح جماحها، أو صدها عن غيها، وإذا به يدب دبيب

الأعمى في الحياة، لا تبصر ولا تعقل ولا اتزان، وإذا به مجرم يتلذذ من إجرامه، وينتشي من ارتكاب أفظع أنواع الفحش والخطايا.

على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد؛ إذ تجد الذات نفسها محكومة بقوى خارجية تتمثل أولًا في الوالدين، فهما يريدان الطفل أن يفعل شيئًا ولا يفعل شيئًا آخر، وهما يتحكمان في سلوكه وأفعاله؛ فهو يجب أن يكون نظيفًا، ويجب ألا يعتدي على إخوته، بل يجب أن يحبهم، ويجب ألا يكون قاسيًا على صغار الحيوانات والطيور، بل يرأف بها ويشفق عليها، ويجب أن يذهب إلى فراشه في وقت معين، ويجب ألا يملأ المنزل ضجيجًا.. إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي التي يصدرها الوالدان دائمًا وأبدًا للطفل، ويستعملان في استدراجه لتنفيذها كل أنواع الإغراء والتهديد.

وإذا بذات الطفل تشرب سلطان الوالدين، وتتقمص منهما شخصيتهما المتسلطة المتنفذة، وبذلك يتحول جزء من الذات إلى ما يسمى بالذات العليا أو Super-ego، التي يمكن أن نعتبرها ممثلة لسلطان الوالدين. وإذا بهذه الذات العليا تتحكم في الذات من الداخل بدلًا من تحكمها فيها عن طريق الوالدين من الخارج، كما كان يحدث من قبل. وإذا بالطفل يدرك في نفسه ومن نفسه ما يجب أن يفعله وما يجب أن يتجنبه، وإذا به ينفذ أوامر الذات العليا تنفيذًا جامدًا، فيستشعر الرضا إذا ما عمل تبعًا لأوامرها، ويستشعر السخط عن طريقها أو يقاسي عقابها إذا ما خالفها.

وتنمو الذات العليا بنمو الطفل وزيادة السلطات التي تتحكم فيه؛ إذ يشرب التعاليم الخلقية والتقاليد السائدة، والنظم الاجتماعية وأحكام الدين وغير ذلك. وتصبح أقرب شبهًا بما نسميه الضمير، الذي يصدر عنه ما يعرف بالشعور بالذنب أو الخطيئة Sense of guilt، إذا ما قام الإنسان بما خالفه. وقد يتطور هذا الشعور بالذنب إلى حالات من القلق النفسي المريع، بل قد يمرض الإنسان تكفيرًا اللذات عما جنت وارتكبت ضد الضمير.

ويختلف تكوين الضمير من شخص لآخر تبعًا لظروف طفولته، ونوع التربية التي تلقاها، والمعاملة التي عاناها. وهو تكوين لا شعوري في أغلبه، أي أن المرء لا يشعر به في الغالب، بالرغم مما له من كبير الأثر في توجيه سلوكه وإثارة قلقه، ومقاساته تعذيبه وإنهاكه لأعصابه، وإخلاله بصحته؛ ومن أجل ذلك وصفناه من قبل بأنه قوة جافة جامدة عتيدة. ولا يقتصر أثر الذات العليا أو الضمير أو الرقيب على كونه حاكمًا داخليًا، ومنظمًا باطنيًا ومسيطرًا خفيًا على سلوك الإنسان وأفكاره ورغباته، بل إنه يقف قوة رقيبة على دوافع الإنسان المتصارعة في ذاته، وحكمًا منفذًا بين رغباته المتضاربة. فكثيرًا ما تقاسي الذات المسكينة من حروب حامية تدور رحاها في داخلها، فحب يصارع حبًا، ورغبة تعارض رغبة أخرى وهكذا، فتعمل الذات العليا على فض هذا الصراع والنزاع، وذلك بتنحية ما ترى وجوب تنحيته وإبعاده عن الذات الشعورية، وإسقاطه في مكمن خفي من العقل، وبذلك يتكون في ذات المرء عقل باطن أو لا شعور جديد، مكتسب غير طبيعي له قوته، وفيه طاقته ونشاطه، وله أثره

أيضًا في سلوك الإنسان وأفكاره وشخصيته الشعورية بوجه عام.

وهكذا نرى أن النفس الإنسانية ثلاثة أقسام: نفس سفلى لا شعورية تحوي الغرائز بحالتها الهمجية الوحشية، ونفس واقعية تتكون من اتصال النفس السفلى أو الذات السفلى بالواقع وعالم الحقيقة، ونفس عليا أو ذات عليا وهي ما يمكن أن نسميها بالرقيب أو الضمير، وتتكون نتيجة اتصال الذات بالقوى المسيطرة المتحكمة في المرء من الخارج، وامتصاص جزء من الذات لهذه القوى أو تقمصها إياها، بحيث تصبح قوة رقيبة محاسبة داخلية لا شعورية في الغالب.

ومن هنا نجد أن النفس البشرية بأقسامها الثلاثة، أو مظاهرها الثلاثة، نفس معقدة التعقيد كله، وأنها منذ بدء وجودها بطبيعتها، وهي في حالة همجية وحشية، تحتاج إلى أن تتناولها بالتربية والتهذيب أيدٍ صالحة، وعقول متيقظة متفهمة إلى حد غير قليل بالطبيعة البشرية، خصوصًا في السنوات الأولى من حياة الناشئ. ومن أجل هذا ينادي المربون بضرورة تعليم الفتيات، وهن أمهات المستقبل اللاتي سيقع عليهن هذا العبء الثقيل أكثر من الآباء، وأكثر من أي شخص آخر، ينادون بضرورة تعليمهن شيئًا غير قليل عن النفس البشرية، وعن كيفية تهذيبها وإحداث التوافق والانسجام بين أقسامها ومظاهرها، في أثناء تطورها وتوالدها من النفس الأولية، أو ما سميناها بالذات السفلى.

وليس هذا التحليل النفس البشرية ببدعة جديدة أو كشف فريد أتى به على التحليل النفسي، ولكنا نجد شيئًا قريبًا من ذلك في الكتب السماوية

وفي أقوال الفلاسفة[1] والشعراء، كما نجد أن تحليل النفس لدى علماء النفس المعتدلين يكاد يتقارب مع ما أبداه علماء التحليل النفسي، بالرغم مما يتراءى لنا من سعة شقة الخلاف بينهم في غير ذلك من الآراء.

فالقرآن الكريم يتحدث عن أنواع مختلفة من الأنفس كما يتبين من الآيات الآتية:

١. " وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ"، والنفس هنا هي النفس السفلى.

٢. "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة *ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً *فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي". ويتبين أن النفس المذكورة هنا هي النفس العليا.

٣. "إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ".

النفس هذا هي النفس الواقعية أو الذات، والحافظ هو الرقيب أو الضمير.

٤. "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا"

وقد جمعت هذه الآية بين الذات والنفس السفلى والنفس العليا، ويلاحظ الترتيب في ذكر القوتين المؤثرتين على الذات، فقد بدأ القرآن الكريم بالنفس السفلى "فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا"، وهي النفس الوراثية المكونة من الغرائز في حالتها الهمجية، وهي أول أنواع النفس وجودًا لدى الإنسان، ثم

---

(1) الكتاب الرابع من جمهورية أفلاطون مليء بمناقشة بديعة لتقسيم الروح إلى أقسام ثلاثة تكاد تشبه التقسيم الذي ذكرناه.

ذكر بعد ذلك النفس العليا، وهي التي تتكون فيما بعد كما سبق أن وضحنا.

وقال ابن حزم: "إذا لم يكن للمرء من سوء فعله ما يؤنبه عليه ضميره، أمكنه أن ينام ملء عينيه هادئًا مستريحًا، ولو جعلوا فراشه من شوك القتاد".

هنا نجد الكلام عن الضمير أو الذات العليا واضحًا، كما نجد في كلمة "سوء فعله" معنى ضمنيًا للذات والذات السفلى.

وكذلك نجد أنواع النفس واضحة في شعر الشعراء مثل:

لا ترجــعُ الأنفــسُ عــن غيِّهــا   مــا لــم يكــنْ منهــا لهــا زاجــرُ

* * *

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تقلْ   خلـوتُ، ولكـنْ قـلْ علـيَّ رقيـبُ

* * *

والنفسُ من خيرِها في خيرِ عافيةٍ   والنفسُ من شرِّها في مَرتَعٍ وَخِمِ

* * *

ولو أنا درسنا بحوث علماء النفس المعتدلين، وعلى رأسهم مكدوجل، واضع أسس علم النفس الاجتماعي، وجدناهم يتحدثون لنا عن أربع مراحل للسلوك البشري.

الأولى: مرحلة السلوك الغريزي، ويحدث التعديل فيه عن طريق اللذة والألم الذين يخبرهما المرء في أثناء تحقيقه لغرائزه الحيوانية.

والثانية: مرحلة تعديل السلوك الغريزي عن طريق الثواب والعقاب،

اللذين يوقعهما المجتمع على الفرد.

والثالثة: مرحلة ضبط السلوك، عن طريق توقع مدح المجتمع أو لومه.

والرابعة: مرحلة السلوك الراقي، الذي يقوم على أساس من مثل عليا تدفع الإنسان لأن يسلك السلوك الذي يراه صحيحًا، بصرف النظر عن مدح المجتمع أو لومه.[1]

أما المرحلة الأولى فهي تشابه تمامًا مرحلة انسياق الإنسان في أول عهده بالحياة وراء الذات السفلى التي تكلمنا عنها.

والمرحلة الثانية تشابه مرحلة تكوين الذات؛ نتيجة اتصال جزء من الذات السفلى بالحياة الواقعية التي يعيش فيها الإنسان؛ إذ إن تعديل السلوك الغريزي عن طريق الثواب والعقاب، اللذين يوقعهما المجتمع – كما يرى مكدوجل– يتضمن بدء شعور الإنسان بذاته، ويهيء هذه الذات لحياة الواقع والحقيقة.

والمرحلة الثالثة مرحلة انتقال بين الذات والذات العليا أو الضمير؛ إذ تتضمن اتخاذ الذات مثلًا لها من المجتمع الذي تتأثر به، ومحاولتها أن تشكل نفسها على شاكلته وتسير على هديه. كأن يتخذ الطفل أباه أو

---

(1) يمكن الرجوع في ذلك إلى الباب السابع من كتاب:
Social Psychology By W. Mc. Dougall

الذي يتكلم فيه عن (نمو الشعور بالذات وعاطفة اعتبار الذات).

أمه أو كليهما مثلًا له، وبذلك يتوقع مديحهما إن سلك سلوكًا يرتضيانه، أو لومهما إن ابتعد في سلوكه عما يتطلبانه. ويهتم التحليل النفسي بهذه المرحلة التي يتبعها مرحلة تكوين الضمير، ويعتبرها أهم عامل في تشكله وتركيبه، ويسميه عامل الذات المثلى ideal–ego، وسيأتي الكلام عنه بالتفصيل فيما بعد.

والمرحلة الرابعة التي يتكلم عنها مكدوجل، والتي حين يصلها الفرد، يبدأ يتصرف ويسلك سلوكه تبعًا لمثل عليا عنده، دون اعتبار لمدح المجتمع أو لومه، تشبه تكوين الذات العليا أو الضمير لدى جماعة التحليل النفسي، حين يتمثل الفرد ذاته المثلى أو مثله من المجتمع، وخصوصًا من والديه اللذين هما ألصق الناس به وأشدهم تأثيرًا فيه.

ويعترف مكدوجل باتفاقه في آرائه عن النفس البشرية مع آراء جماعة التحليل النفسي؛ إذ يقول في كتابه التحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي Social Psychology & Psycho analysis (ص ١٠٤ من الطبعة الثانية سنة ١٩٣٧) ما يأتي:

"ليس هناك اختلاف يستحق الذكر بيننا في ذلك" (أي في تقسيم النفس).

وفي هامش الصفحة نفسها يبين أنه وفرويد متفقان إلى حد كبير، ولو أنه يصوغ كلامه في صيغة لاذعة فيقول: "إذا قرأ أي شخص ملم بكتابي علم النفس الاجتماعي صفحتي ٩٠، ٩١ من كتاب فرويد (محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي) (طبعة ١٩٣٣)، فإنه

يدرك بسهولة في تلك الفقرة تكرارًا مركزًا متضمنًا لآرائي الرئيسية في كتابي هذا الذي نشرته في سنة ١٩٠٨. إنني لا أتهم فرويد هنا بقراءته كتابي (علم النفس الاجتماعي)، إنني واثق أنه لم يقرأه، ولكنى مسرور لأنه يكوّن ببطء آراء مماثلة لآرائي عن أهم المشكلات في علم النفس الاجتماعي".

الضمير الإنساني:

وسنقصر بحثنا على الذات العليا أو الضمير، مبينين كيف يتكون وكيف يؤثر في سلوكنا، ومتخذين من ذلك عبرة تنفعنا في تكوين أخلاق الناشيء. وأرجو أن يتذكر القارئ ما سبق أن أوجزت في تحليل النفس البشرية.

نستطيع أن نميز في تكوين الضمير أربعة عوامل أساسية نلخصها فيما يلى:

١- الذات المثلى Ego ideal:

وتنشأ من أن طاقة الإنسان الحيوية المستمدة من غريزة الحياة العامة[1] بحالتها الفطرية، هذه الطاقة الحيوية، أو قل هذا الحب للحياة، لا يتصل فقط بالأشياء الخارجة عن ذات الإنسان، ولكن جزءًا منها يتجه نحو الذات؛ فكل فرد منا يحب نفسه، كما أنه يحب غيره من الناس، وهذا ما

(1) نواة غريزة الحياة عند علماء التحليل النفسي هي الغريزة الجنسية؛ لأنها الغريزة التي تدفع للتناسل واستمرار الحياة. ولذلك اهتم بها علماء التحليل اهتمامًا كبيرًا أدى ببعضهم إلى المبالغة في اعتبارها مصدر الطاقة الحيوية عند الفرد، وبنوا على ذلك آراء متطرفة، نجدها في بعض بحوث فرويد وأتباعه. ولكي يأخذ القارئ فكرة مبسطة عن ذلك، يمكن أن يرجع إلى كتاب (التحليل النفسي للأطفال)، تأليف (آنا فرويد) وتعريب المؤلف.

يسميه علماء التحليل النفسي بالطاقة النرجسية أو الحب النرجسي[1].

ويتطور حب الإنسان لذاته وينشطر شطرين، شطر يتصل بذاته الحقيقة كما هي، فكل إنسان يحب نفسه على ما هي عليه، ولكنه باحتكاكه بالحياة الخارجية، ومقارنة ذاته بالذوات الأخرى التي حوله، سرعان ما يشعر بأن ذاته ناقصة قاصرة في كل ناحية: في الناحية الجسمية والعقلية والخلقية، فينسج من خياله ذاتًا مثلى يود ويطمح أن تكون هي ذاته الحقيقية، ويتصل بهذه الذات المثلى الشطر الآخر من حب الإنسان لذاته الذي أشرنا إليه من قبل. وهذه الذات المثلى أو ego ideal **هي أول العوامل في تكوين الذات العليا أو الضمير وأهمها، وسنرجع إليها بشيء من التفصيل فيه بعد.**

٢ – والعامل الثاني في تكوين الذات العليا هو عملية امتصاص لما عليه الآخرون من أخلاق وصفات أو تمثله أو تقمصه، وخصوصًا الوالدين اللذين يتحكمان في الطفل ويسيطران على سلوكه وتصرفاته، أو من يقوم مقامهما في ذلك. ومن ثم يصبح الشكل الذي عليه الوالدان أو

---

(1) الكلمة الإنجليزية للحب النرجسي أو حب الإنسان لذاته هي Narcissism، وهي مشتقة من كلمة Narcissus أو نرجس، وهو تبعًا للأسطورة الإغريقية، اسم لابن إله النهر، كان يمتاز بجمال فاضح، وقد أحبته الحورية Echo (إكو)، ولكنه رفض حبها ولم يعرها أي اهتمام فغضبت الآلهة عليه. وفي مرة من المرات رأى نرجس صورته منعكسة من عين ماء فأغرم بالصورة، وهام بنفسه هيامًا شديدًا أضناه وأفناه، وظهرت زهرة النرجس في المكان الذي مات فيه.
الأصل في هذه الأسطورة، الخرافة التي كانت شائعة عند الإغريق، وهي اعتقادهم في أن رؤية الإنسان في حلمه لصورته منعكسة من الماء نذير بموته.

غيرهما من الأشخاص ذوي النفوذ والسلطان علينا وذوي التأثير العظيم فينا أثناء طفولتنا، يصبح هذا الشكل بعد أن نتمثله –وهو الصورة الأولى لذاتنا المثلى– جزءًا من تركيبنا النفسي أو العقلى، وكأنه طبيعة ثانية لنا[1]. وبواسطة هذه العملية نتوارث المعايير الخلقية والتقاليد الاجتماعية من جيل إلى جيل؛ إذ إن هذا التركيب الداخلي الذي تمثلناه من المتنفذين المسيطرين علينا، علاوة على تأثيره فينا، فإنه ولاشك يؤثر أيضًا في أبنائنا فيما بعد، فيتمثلونه إلى درجة كبيرة كما تمثلناه نحن عن والدينا؛ ولهذا فغالبًا ما تبقي المعايير والتقاليد والقيم الخلقية ثابتة مستمرة إلى أمد كبير.

٣– والعامل الثالث في تكوين الذات العليا قسوة ناشئة عن مشاعر عدوانية طبيعية، فكثير من الأشياء الخارجية حول الطفل، ومنها الوالدان تقف عقبة في سبيل إرضاء رغباته ودوافعه، وبذلك تثير فيه الغضب والعدوان، فيحاول التغلب عليها، ومحوها من طريقه حتى يحقق بذلك رغباته ودوافعه. ولكن غالبًا ما يكون عدوان الطفل فاشلًا لسببين هامين: أولهما أنه ضعيف الحيلة، محدود القوي إزاء تلك العقبات، وثانيهما أن بعض هذه العقبات أو معظمها في حياة الطفولة الأولى، تتمثل في الوالدين أو من يقوم مقامهما، وهم الذين يحنون في الوقت نفسه على الطفل، ويعطفون عليه ويحبونه، وهم أيضًا سنده وعماده في الحياة. فإن

---

(1) يمكننا أن نشبه عملية التقمص هذه بعملية التقليد اللا شعوري التي بها يحاكي الطفل والديه أو المتنفذين فيه، فيتكلم ويمشي ويتصرف كما يتكلمون ويمشون ويتصرفون، ويأخذ عنهم آراءهم وأفكارهم وعقائدهم، ويشرب بعواطفهم ومثلهم، ويصبح كأنه نسخة مصغرة منهم.

هو عبر عن مشاعره العدوانية نحوهم بشكل واضح، كأن شتمهم أو ضربهم، أو دمر شيئًا من متاعهم، فإنهم يوقعون عليه العقاب، إما الضرب أو بسحب عطفهم عليه، والتوقف عن حبهم له. حقًا إن من مآسي الحياة الكبرى أن يضطر الإنسان لأن يكره من يحبهم حبًا عميقًا[1]. وإن هذه المأساة لتبدأ من الطفولة الأولى، ونجد مظاهرها في الرضيع حين يعتدي على أحب شيء لديه، وأعز موجود عنده، فيعض أمه في ثديها الذي يشبعه من جوع، ويرويه من ظمأ، ويمده بالرضا والهناءة، وإنها لتستمر طول الحياة في الصلة بين ذاته وذاته العليا التي تتجه إليها عاطفتا الحب والكراهية، كما تنبعثان منها أيضًا.

ماذا يفعل الطفل الصغير عندما يجد نفسه عاجزًا في كثير من الأحايين، عن أن يعبر فعلًا عن كراهيته لوالديه، فيعتدي عليهما عندما يقفان حاجزًا منيعة بينه وبين رغباته؟ إنه لا يستطيع أن يحول عدوانه نحو أخ له فيوسعه ضربًا، أو نحو قطته فيرفضها أو يلقمها حجرًا، أو نحو بعض المتاع فيعمل فيه تدميرًا وتحطيما، كما يستطيع أن يفعل عندما يكبر ويشتد ساعده. ليس أمامه سوى ذاته هو يصب عليها جام غضبه، وينفذ فيها دافع العدوان الذي يملؤه: إنه ليشد شعره، ويخدش وجهه ويلطم رأسه، ويعض لسانه أو يده. وإن الإنسان ليقوم بذلك طول حياته،

(1) لقد عبرت الكتب السماوية عن هذه المأساة الإنسانية، فجاء في القرآن الكريم "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ" (سورة التغابن).
كما جاء في إنجيل متى في الإصحاح العاشر فقرة ٣٦: "وأعداء الإنسان أهل بيته".

فكم من المرات يشتم الراشد نفسه، وينعتها بالغباء، ويتمنى لها الموت، وكم يدق على صدره دقًّا مبرحًا، أو يصفع وجه صفعًا مجرحًا[1].

وفي الغالب يبدأ هذا العدوان الذي تثيره الحياة الخارجية، وخصوصًا الوالدان أو من يمثلهما، يبدأ يتجه نحو الذات في المرحلة من الحياة التي تحدث فيها عملية الامتصاص أو التمثيل أو التقمص التي أشرنا إليها من قبل، فالطفل يتمثل الوالدين الآمرين الناهيين في نفسه، فيصبحان جزءًا من عقله أو نفسه في صورة الذات العليا أو الضمير. وبذلك يتلقى الأوامر والنواهي من ذلك الجزء من العقل. وفي الوقت نفسه يتحول عدوان الطفل ضدهما إلى ذاته. وتمتزج العمليتان معًا: عملية التمثل، وعملية تحول العداء نحو الذات. وينتج عن هذا التمازج أن يتصل العداء بالذات العليا وكأنه صادر عنها. وبذلك تصطبغ الذات العليا الممثلة للوالدين المتنفذين داخل العقل، وبالعدوان الراجع إليهما بالطبيعة بصفتهما عاملين رادعين وسدين منيعين، يقفان في وجه الطفل عند محاولته تحقيق الكثير من رغباته. ويشد أزر الذات العليا في عدائها وعدوانها ضد الذات، دوافع العدوان في الطفل نفسه؛ ومن أجل هذا وغيره تصبح الذات العليا أو الضمير أشد بأسًا وأفظع قسوة وأشنع عدوانًا من الوالدين الحقيقيين.

٤- أما العامل الرابع في تكوين الذات العليا أو الضمير فإنه يتصل

---

(1) يشاهد هذا أيضًا في كثير من الأمهات، ففي بعض الأحيان عندما يذنب الطفل، تتحول المشاعر العدوانية للأم ضده نحو نفسها، فبدلًا من أن تعاقبه، فإنها تعاقب نفسها بأن تلطم وجهها أو تشد شعرها، أو تتألم وتبكي ألمًا كأن عقابًا قد وقع عليها.

بعض الاتصال بالعامل السابق، وهو وجود الدوافع العدوانية لدى الذات العليا أو الضمير تجاه الذات، وهذا العامل الرابع هو الميل لاستشعار اللذة من التحكم والإيلام لمجرد التحكم والإيلام، زيادة على التحكم والإيلام والقسوة التي تصحب الدوافع العدوانية التي تكلمنا عنها من قبل. أي أن هناك ميلًا لدى كل إنسان، يجعله يتلذذ من أن يؤلم ويقسو لمجرد الإيلام والقسوة، وفي الوقت نفسه يتألم ويقاسي لمجرد الألم والمقاساة، وقد سمي هذا الميل بالميل الماسوشي – السادي.

والكلمة الأولى مشتقة من اسم للكاتب النمساوي فون ساشر ماسوش von Sacher Masoch الذي جعل كثيرًا من أبطال رواياته يتلذذون من الآلام والمقاساة، والكلمة الثانية مشتقة من اسم الماركيز دي ساد Marquis de Sade الروائي الفرنسي، الذي كان يصور أبطاله بحيث يتلذذون من أن يقسوا على الغير ويؤلموهم، وقد كان هو في حياته الخاصة بالغًا في القسوة، واتهم بجريمة قتل. وليس من شك في أن هذين الميلين في كثير من الأحايين يصطبغان بصبغة جنسية، وقد فسرهما فرويد في ضوء تقسيمه لدوافع الإنسان إلى قسمين رئيسين: دوافع الحياة Eros ودوافع الفناء أو الموت Thanatos، وبين أنهما نتاج امتزاج هذين النوعين من الدوافع، أو بمعنى آخر نتاج امتزاج الدوافع الجنسية بمعناها الواسع، مع دوافع التدمير في الميل السادي، وامتزاج الدوافع الجنسية مع دوافع الاستسلام للتدمير في الميل الماسوشي.

وفسرهما مكدوجل على ضوء إرضاء الغريزة الجنسية وغريزة

السيطرة معًا في حالة الميل السادي، وإرضاء الغريزة الجنسية وغريزة الاستكانة أو الخنوع معًا في حالة الميل الماسوشي.

ومهما كان الأمر في تفسير تركيب كل من هذين الميلين، فليس من شك في أن توقيع العقوبة من الخارج على الإنسان، يتضمن إرضاءًا للميل السادي والميل الماسوشي إلى حد ما. والمفروض أن العقوبة ركن من أركان النظام الأخلاقي، وأنها تصدر عن المتنفذين المتحكمين، من الوالدين –في أول الأمر– المسيطرين على الطفل، إلى المربين والهيئات التشريعية والإدارية والقوة الإلهية. فعندما تمثل الطفل والديه بالشكل الذي سبق أن وضحناه، فإنه يتمثل أيضًا ميلهما السادي، الذي يصبح بذلك عاملًا من عوامل الذات العليا أو الضمير، يجعله يقسو ويعاقب الذات من داخل النفس. وبذلك لا يتحكم الضمير فقط في الذات فيأمرها وينهاها، ويزجرها ويردعها، بل إنه يعاقبها ويوجعها أيضًا، وتستشعر الذات شيئًا من اللذة في هذا العقاب الذي يوقع عليها إرضاء للميل الماسوشي، وكأن في ذات كل فرد منا رغبة في أن تعاقب وتتألم.

قد يبدو هذا أمرًا غريبًا، ولكن لو نحن فحصنا في خبراتنا الخاصة لزالت هذه الغرابة، فكم من امرئ يطحن عينيه بيديه، ويستشعر اللذة من الألم الناشئ عن ذلك الطحن. وكم من شخص ينتشي من أن يعض غيره أو يضربه، أو من أن يتناوله الغير بالعض والضرب. وإن أمثلتنا الشعبية وأغانينا وأشعارنا المليئة بالاعتراف بلذة الإيلام والتألم، والمثل في ذلك ما يأتي:

(أ) ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب.

(ب) حسدوني وباين في عينيهم من عطفك وحنانك لي

وعذابي في هواك يرضيهم ويا ريتك بتعذب في.

هنا يفضل الشاعر نشوة العذاب في الحب على نشوة العطف والحنان المجرد.

(ح) فحرقنا نفوسنا في جحيم من القبل.

يقرن الشاعر هنا لذة القبل بالجحيم والاحتراق.

(د) علائم المقاساة من الآه والواه والأي والأف وغير ذلك، التي تمتلئ بها بعض الأغاني، والتي تصطبغ بأكبر نشوة وأعظم لذة.

(هـ) قول الشاعر:

مُـرُّ مـا مَـرَّ بـي لأجلـكَ حُلـوٌ ... وعـذابي مـن أجـلِ حبِّـكَ عـذبُ

* * *

أو:

ريمٌ على القاعِ بينَ البانِ والعلمِ ... أحلَّ سفكَ دمي في الأشهرِ الحُرُمِ

لمـا رنـا حـدثتني الـنفسُ قائلـةً ... يا ويحَ جنبِكَ بالسهمِ المصيبِ رُمِي

جحدتُها وكتمتُ السهمَ في كبدي ... جـرحُ الأحبـةِ عنـدي غيـرُ ذي ألـمِ

(و) ثم تلك النشوة في تقطيع الأصابع، التي وصفها القرآن الكريم في سورة يوسف في هذه الآية:

"فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ

وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ"

فالنشوة ظاهرة في تكبيرهن ليوسف "فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ". وهي نشوة حسية ولا شك، غلبت عليهن حتى قطعن أيديهن ولم يشعرن بألم التقطيع، بل ظلت النشوة غالبة عليهن أثناء تقطيعهن لأصابعهن، كما يتبين من ترتيب الحوادث في الآية: "وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ".

هذه هي العوامل الأساسية التي تتدخل في تكوين الذات العليا أو الضمير، وليس هنا مجال مناقشة كل عامل منها على حدة، فسيأتي الكلام على ذلك في سياق الأبواب التالية. ولكن لما للعامل الأول – وهو تكوين الذات المنتدى أو المثل– من أهمية خاصة، فسأتكلم عنه بشيء من التفصيل في الباب التالي، مع الإشارة إلى العامل الثاني وهو تمثل الذات للذات المثلى.

الباب الثاني

المثل العليا وتكامل الضمير

تكلمت في الباب السابق عن أربعة عوامل تتدخل في تكوين الضمير الإنساني، هي: (أولًا): الذات المثلى أو المثل التي يستشعرها المرء في المتنفذين فيه، والتي يطمح في أن تكون ذاته على صورتها وشاكلتها. و(ثانيًا): تمثله هذه المثل أو ما سميناها بالذات المثلى حتى تصبح جزءًا من نفسه، ونواة ذاته العليا أو ضميره. و(ثالثًا): المشاعر العدوانية التي يستشعرها المرء في طفولته نحو والديه وهما أول المتنفذين فيه، وذلك عندما يقفان سدًا منيعًا أمامه يعوقانه عن تحقيق رغباته وإرضاء غرائزه، وتحول هذه المشاعر نحو ذاته هو، في الوقت الذي يتمثل الوالدين ذاتًا مثلى له؛ وذلك لضعفه وعجزه عن أن يحقق دوافع تلك المشاعر العدوانية في والديه. وبذلك تصطبغ الذات العليا بهذه المشاعر، فتنطوي على شدة وبأس وقسوة. و(رابعًا): لاستشعار اللذة من التحكم والسيادة والإيلام لمجرد الإيلام، وما يتصل به أيضًا من استشعار اللذة، من أن تحكم ذات الإنسان ويقسى عليها وتؤلم، وهذا يزيد في قسوة الضمير وشدته وبأسه.

وذكرت أنه لأهمية العامل الأول في تكوين الضمير، رأيت أن أفرد له هذا الباب الثاني من الكتاب، أما العامل الثاني فسيأتي الكلام عنه أيضًا في هذا الباب لصلته الوثيقة بالعامل الأول.

الذات المثلى:

ليس التحليل النفسي فردًا في تبيانه أهمية هذا العامل في تكوين الضمير، فعلماء النفس على اختلاف مذاهبهم وعلماء الأخلاق اتفقوا جميعًا على ذلك، بل إنهم جميعًا متفقون على أهمية العامل الثاني في تكوين الضمير، ألا وهو امتصاص الطفل صفات المسيطرين عليه وتقمصها، وخصوصًا الوالدين.

فلو أخذنا مكدوجل مثلًا، وهو عالم نفسي من العلماء الأرثوذكسيين المعتدلين، الذي كان لنظرياته وآرائه عن طبيعة الأخلاق وتطورها صدى عظيم في علم النفس الحديث، نجد أنه يضفي أعظم أهمية على تكوين عاطفة في الإنسان يسميها عاطفة اعتبار الذات، وهي تنشأ عن إدراك الطفل لذاته الخاصة منفصلة عن الذوات الأخرى أو الشخصيات الأخرى التي تحيط به، والتي عليها تتوقف فكرته عن ذاته. ويبدأ الطفل يهتم بأنواع السلوك الذي يقوم به الآخرون تجاهه، والذي يعبر عن سخطهم عليه أو رضاهم عنه؛ إذ يتوقف على ذلك السلوك شقاؤه أو سعادته. وبذلك يتعلم أن يأخذ بوجهة النظر الخلقية لهؤلاء حتى يكسب رضاهم، ويتجنب لومهم وسخطهم. ويشيد لنفسه مستوى من السلوك، يحاول أن يصل إليه، مماثلًا لمستوى سلوك الآخرين. وكأن هذا المستوى مثلًا له، يستشعر تدريجيًا الرضا عنه، ويعين نوع عاطفة اعتبار الذات التي تتكون عنده. وكأن هذه العاطفة تصبح مشحونة بالمثل التي تكونت لديه بأخذه إياها عن الغير، وخصوصًا عن أقرب الناس إليه، وأشدهم صلة به. فإذا ما عمل تبعًا لما تتطلبه هذه المثل رضي عن نفسه، وإذا خالفها استشعر السخط والضيق.

فعاطفة اعتبار الذات، هي إذن في نظر مكدوجل، قوة أقرب ما تكون إلى ما نعرفه بالضمير، هي التي تنظم سلوك الإنسان، أو على الأقل أنها تجعله يحكم على سلوكه فيرضى عن نفسه، إن كان سلوكه قريبًا من المستوى الذي رسمه وحدده، موجهًا في ذلك بمستوى سلوك الآخرين، وخصوصًا الوالدين في أول الأمر، أو ينقده ويشعر بسخط داخلي إن كان بعيدًا عن هذا المستوى.

وإذا كانت هذه العاطفة معدومة، أو كانت ضعيفة، يفقد الإنسان أهم ركن تستند إليه الأخلاق، ويسير في الحياة متخبطًا وراء دوافعه الطبيعية المختلفة أنى وجهته، وكأن ليس له من إرادة[1].

وتبين من هذه العجالة البسيطة، التي أتينا بها لكي نعطي فكرة مختصرة بسيطة عن رأي زعيم من زعماء علماء النفس، طالما وقف معارضًا، بل ومنتقدًا قاسيًا لكثير من آراء ونظريات التحليل النفسي[2]، نتبين منها أمورًا على جانب كبير من الأهمية، فهو يوافق التحليل النفسي على تكوين الذات، وعلى تأثر هذه الذات بالمسيطرين المتنفذين في الطفل، وعلى تشرب الطفل مثل هؤلاء، وتكون قوة خاصة فيه هي عاطفة اعتبار الذات، تعين سلوكه، وتشعره بالرضا إن سلك سلوكًا يساير المثل

---

(1) انظر الباب السابع (نمو الشعور بالذات وعاطفة اعتبار الذات) من كتاب:

Social Psychology، by W. Mc. Dougall

(2) انظر كتاب

Social Psychology by. W. Mc Dougal & Psycho - Analysis فهو مليء بانتقادات للتحليل النفسي.

المتضمنة فيها، وتشعره بالتأنيب والوخز والذنب والضيق، إن تعارض سلوكه معها.

وكذلك لو أخذنا آدلر، منشئ مدرسة علم النفس الفردي[١]، تلك المدرسة التي جعلت الذات نواة بحوثها، نجده قد سبق مدرسة التحليل النفسي في دراسة تطور المثل، وفي كيف يثير فينا مس احترام الذات وتجريحها بأي شكل من الأشكال شعورًا بالسخط والغضب.

إن أهم دافع في حياة الإنسان عند آدلر، هو شيء أقرب إلى إرادة القوة عند الفيلسوف الألماني نيتشه Nietzshe، وهو دافع يستحث المرء لأن يعلو ويتغلب ويتحكم، ويؤكد سلطانه وعظمته. ولكن سرعان ما يشعر الإنسان بالألم، خصوصًا في عهد طفولته العاجز، عندما يدرك أنه قليل الشأن، ضعيف الحيلة بالنسبة لغيره؛ ولذلك يشيد لنفسه صورة موجهة أو هدفًا لحياته[٢]، أو مثلًا أعلى يتمنى لو يكونه. وهذه الصورة الموجهة أو هدف الحياة يحدد سلوكه، ويعين تصرفاته، ويرسم نمط حياته أو أسلوب الحياة[٣] الذي يسير عليه، وهو يشبه إلى حد كبير ما سماه التحليل النفسي بالذات المثلى. ولكن هناك شيئًا من الاختلاف الأساسي بين فكرة مدرسة التحليل النفسي ومدرسة علم النفس الفردي عن الذات المثلى للأولى، والصورة الموجهة للثانية.

فالذات المثلى عامل خلقي أساسي يتبنى بها المرء المثل الخلقية

---

(١) Individual Psychology.

(٢) الصورة الموجهة Guiding Fiction، وهدف الحياة Goal of Life.

(٣) نمط الحياة أو أسلوب الحياة Pattern of Life or Style of Life.

في محيطه، بينما الصورة الموجهة هي نتاج الأنانية الأولية الأصلية للمرء، نتاج حاجته الفردية لأن يتحكم وتفوق.

وعلاوة على ذلك فالصورة الموجهة إنما تتكون في الفرد وتتحدد لدرجة كبيرة، نتيجة محاولاته أن يعوض عن نقصه وقصوره. إن التأكيد على التعويض هو لدى آدلر ركن هام من الأركان الأساسية في مذهبه.

ففي بعض الحالات، تكون هذه الصورة الموجهة أو هدف الحياة حقيقيًا واقعيًا، يثير باستمرار دافع النجاح، إما بأن يتغلب الإنسان على مواضع ضعفه، ويقوي مراكز نقصه، كأن يمرن الشخص الضعيف البنية عضلات جسمه، أو يكثر الطالب المتأخر من ساعات دراساته، وإما أن يقوم المرء بالتعويض عن قصوره في نواح] أخرى، كأن يعوض التلميذ عن ضعفه الجسمي بتفوقه في دروسه وأعماله.

وفي بعض الحالات، قد تكون الصورة الموجهة أو هدف الحياة، بعيدًا عن الواقع بعدًا شاسعًا، فلا يكون بذلك حافزًا لمحاولات جدية يقوم المرء بها لتقوية مواطن ضعفه، أو التعويض عنها بالبروز والظهور في نواحٍ أخرى غيرها. فيلجأ المرء إلى الخيالات والأوهام، يحقق فيها ما يشاء، ويحاول عن طريقها أن يكون لنفسه قدرًا، ويجعل لذاته قيمة، بعد أن سدت حياة الواقع الطرق أمامه. والمثل في ذلك مثل ذلك الطفل الفقير، الذي تكون هدف حياته على صورة الاستمتاع بما يستمتع به الأطفال الأغنياء، من الحوز على ملابس أنيقة، ونقود كثيرة، ولعب متعددة، وقصر باذخ، وغير ذلك. فهو يلجأ إلى خياله يبني فيه ما يشاء، ويستمد منه كل ما تصبو نفسه إليه، ويحقق فيه كل ما تصبو ذاته إليه من رغبات.

والتحليل النفسي لا يهتم اهتمام المدرسة الفردية بالتعويض عن النقص في دراسته للذات المثلى. حقًا إن مدرسة التحليل تعترف بوجود هذا الشعور بالنقص، ولكنها تعتقد أنه يلعب دورًا ثانويًا في تعيين الأهداف الخلقية، وتحديد سلوك المرء واتجاهاته في الحياة، بل إن هذه المدرسة، ترى أن الشعور بالنقص إنما هو نتاج المثل الخلقية، وليس سببًا لوجودها وتكوينها؛ وذلك لأن الفشل في الوصول إلى تحقيق هذه المثل. يأتي معه بالشعور بالنقص والذنب، وضآلة قيمة المرء، اللهم إلا إذا علل الفشل تعليلًا معقولًا أو بُرر بشكل من الأشكال.

وعلى كل حال، فإنه يتراءى لنا أن مدرسة التحليل النفسي أعمق في دراساتها وبحوثها، وأكثر ثروة في آرائها، من مدرسة علم التنفس الفردي.

ويعلق جماعة التحليل النفسي أهمية كبرى على نوع الذات المثلى، التي تتكون في المرء بالنسبة لذاته. فإذا كان الفرق بينهما شاسعًا أثار الشعور بالنقص والذنب والسخط؛ إذ ترى الذات أنها أعجز من أن تصل للذات المثلى، وأضعف من أن تقطع المسافة التي تفصل بينهما. ويفسر لنا هذا، كيف أن عددًا غير قليل من الناس يلومون أنفسهم دائمًا، حتى ولو أحرزوا شيئًا من النجاح في حياتهم، بينما لا يلومون غيرهم، إذا ما أحرزوا النجاح نفسه؛ وذلك لأنهم ينتظرون من أنفسهم أكثر بكثير مما ينتظرون من غيرهم، ولأنهم ينظرون للغير كما لو كانوا من معدن غير معدنهم، فلا يرجى منهم أن يترقوا في سلم الحياة درجات بقدر الدرجات التي يجب عليهم هم أن يصعدوها.

إن كثيرًا من الشقاء الذي ينهش في نفوس بعض الأفراد، ينشأ من أنهم رسموا لأنفسهم مستوى شاهقًا رفيعًا، وربما كان هذا امتدادًا لنوع المعاملة التي عاملهم بها والدوهم عندما كانوا أطفالًا صغارًا، فبعض الوالدين يتطلبان من الطفل الصغير الكمال في كل الشيء، في أعماله وسلوكه وكلامه، ويحاسبانه على كل هفوة تصدر عنه حسابًا عسيرًا، وينظران إليه كما لو كان راشدًا متفهمًا مكتمل العقل ناضج القوى، فينشأ مثل هذا الطفل ساخطًا متبرمًا لا يقنع بأي شيء، مغمورًا دائمًا بشعور من الخزي والخجل والسخط، إذا ارتقى إلى منصب فلا يزال يرى أنه في مركز أقل بكثير مما هو جدير به، وكلما غمرته نعمة، شعر بأنه أحق بما يفوقها درجات. إنه لا يستطيع أن يتذوق طعمًا للسعادة والرضا، بل إنه ليشع الشقاء على غيره، وينشر البؤس والتعاسة بينهم، بانتقاده المستمر لسلوكهم وتصرفاتهم مهما كانوا على خلق كريم. وقد يصبح هذا الشخص عصابي Neurotic دائم السخط على المجتمع؛ إذ لا يجد فيه الفضيلة التي يهواها ويتعشقها ويعبدها، دون أن يمارسها في الغالب، نافرًا من الناس، لأنه يشعر بأنهم أقل منه شأنًا بكثير، وأحط من أن يمتزج بهم، أنانيًا يعمل على أن يحقق رغباته الخاصة، إذ يراها أرفع الرغبات وأسماها، وأجدرها بالتحقيق دون سواها. ويرى نفسه –في ذاته المثلى– أعلى وأفضل وأرقى من في الوجود، بينما قد يكون في ذاته الواقعية أجهل وأرذل وأحط من في الوجود.

ليست الحياة العامة بالمكان الذي يصلح لمثل هذا الشخص، ولكنه بحاجة إلى إصلاحية يعالج فيها من مرضه النفسي، أو إلى دير

يناجي فيه السماء، ويتغزل في المثل الرفيعة التي أبدعها وأودعها فيها، بينما يزحف على الأرض بذات واقعية حقيرة سخيفة.

إن العلاج الناجع للحالات العصابية، لا ينحصر فقط في أن تضحى الذات السفلى بكثير من مطاليبها التي لا يمكن أن تتصل بحياة الواقع، بل يتضمن أيضًا تقليلًا من المطامح والمطالب البعيدة بعدًا شاسعًا عن الواقع، للذات العليا أو الضمير.

وقد يقال خطأ إن في الإجراء الأخير أثرًا غير خلقي للتحليل النفسي، ولكن يجب أن أكرر هنا، إن وضع هدف عال جدًا للتحصيل الشخصي أو النقاء الخلقي، لا يتناسب مع كفاية الإنسان الحقيقية وإمكانياته، لا ينجم عنه قيمة ذاتية كبيرة للإنسان، وإنما يتمخض عن تبرم وسخط وبؤس له، وحقد دفين شديد على الغير مهما كانوا، وتعاسة لمن يلوذون به من أولاد يربيهم، أو تلاميذ ينشئهم، أو مرؤوسين يسيطر عليهم، بل إنه قد يجعل هؤلاء جميعًا يبغضونه ويثورون ضد مثله العليا، فيزداد شقاؤه شقاءًا.

وكما أن المثل أو الذات المثلى تكون رفيعة، فإنها تكون أيضًا وضيعة. والمثل في ذلك، الذات المثلى التي يتمثلها المرء من بيئة فاسدة أو مجرمة، من أبوين منحطين في أخلاقهما، وضيعين في صفاتهما وسلوكهما.

وحتى لو كانت الذات المثلى التي تقمصها الإنسان من بيئته الأولى طيبة صالحة، فإن اختلاطه مع قرناء سوء، أو اتصاله بأوساط فاسدة، قد

تشربه مثلًا تناهض مثله الأولى، فيحدث بينهما صراع داخلي، ربما ينتهي لعدة أسباب، ليس فقط بتغلب المثل الجديدة، وظهور الذات المثلى الأخيرة، بل بإضعاف الضمير قوة متحكمة في سلوك الإنسان، وإعطاء الفرصة للذات السفلى أن تمسك زمامه، وتقوده إلى الحضيض، وسأرجع إلى هذا بالتفصيل في الباب الأخير. ولكني أود أن أؤكد من الآن على هذه النقطة للمسؤولين عن تربية الناشئة، خصوصًا في دور البلوغ والشباب.

بل أود أيضًا أن أؤكد عليها للشباب العاقل الذي نشأ نشأة طيبة، فأنصحه أن يبتعد عن كل العوامل والحوافز التي تنخر في تلك النشأة، وفي الذات المثلى الطيبة التي تمثلها في بيئته، والتي من شأنها أن تهدد أمنه النفسي، وتزعزع تكوينه الخلق، وإذا به ينزلق إلى الهاوية دون أن يشعر، فيجلب بذلك على نفسه شقاءًا ما دونه من شقاء.

ونجد بين الناس من تعوزهم الرغبة في الظهور بين إخوانهم، والارتقاء بأنفسهم، خصوصًا إذا لم يكن هناك حافز خارجى لذلك، مثل الحاجة لإرضاء أب طموح أو أم طموحة، أو كسب عيش، أو إرضاء حبيب، أو تكفل أولاد. إن هؤلاء يقنعون بأي قسط من النجاح يحرزونه مهما كان ضئيلًا غير متناسب مع قواهم واستعداداتهم، وقد نجد بعض الأفراد يخشون متاعب الحياة، ويتهربون من مسؤولياتها ويعيشون أطفالًا صغارًا مهما امتد العمر بهم. وقد يكون المسؤول عن ذلك أبًا أو أمًا لا تريد أن تفطم ابنها فطامًا نفسيًا، بل تريده أن يكون دائمًا طفلًا صغيرًا، معتمدًا عليها، مجلس في حجرها، ويمسك بذيل ردائها.

وقد يبرر البعض فتور محاولاتهم لتحقيق مثلهم والسير بالتدريج

نحو ذواتهم المثلى، بالمبالغة في تصوير العقبات التي تقف في طريقهم، أو المبالغة في بعض مايقاسون من نواحي ضعف لا سبيل لهم للتغلب عليها، مثل ضعف البنية، أو الفقر المدقع، أو فساد الأحوال الاجتماعية، أو عدم وجود وساطات.. إلى غير ذلك.

وقد يكون البعض على درجة من الكسل أو القناعة بحيث لا يستطيعون أن يرسموا لأنفسهم ذواتًا مثلى.

ويمكن أن نقول في هذا الصدد إن هناك طريقتين للتقليل من الشفاء الناجم عن عدم تحقيق الفرد لرغباته: أولاهما بزيادة المجهود الذي يقوم به، حتى يستطيع أن يحقق أكثر ما يمكن، وثانيتهما: بأن يقلل من المغالاة في رغباته، بحيث يقنع بالوصول إلى أقل مما تزخر نفسه به.

وقد يكون الأفضل للفرد أن يرسم ذواتًا مثلى، ترتقي الواحدة منها على الأخرى، وتؤدي كل منها إلى ما تليها. أما رسم ذات مثلى عالية جدًا، أو منحطة جدًا بالنسبة لقدرات الشخص، فإن ذلك مدعاة الكسل، ومثار لفتور الهمم والتحصيل، علاوة على ما يسببه من متاعب نفسية كثيرة للإنسان، أهمها القلق النفسي المريع الذي تنجم عنه أمراض خطيرة.

الصلة بين الذات المثلى والمجتمع:

إن الذات المثلى شيء غير واقعي، ولكنها تكون في الغالب على شاكلة الذات، وتتفاعل الذاتان طول حياة الإنسان، وينعكس هذا التفاعل بينهما على صلات الإنسان بالمجتمع، التي تشبه إلى حد كبير صلات الطفل بوالديه. ففي أثناء الطفولة يستمتع المرء حب والديه ورضاهما إذا

أطاعهما، وسار تبعًا لما يرغبان، ويقاسي عقابهما وسخطهما إذا ما خالفهما فيما يرغبان. ومعنى ذلك أنه يستمتع بالحب والرضا إذا كان صالحًا طيبًا، ويخشى الغضب والعقوبة إن كان عرمًا عاصيًا. ونجد مثل هذه الصلة بين الذات والذات المثلى التي تمثل الوالدين واتجاهاتهما السلوكية والخلقية، ونستبين هذا في سلوك الطفل الصغير عندما يبدي رضاه عن نفسه، إذا سلك السلوك الذي يرضي ذاته المثلى (الممثلة للوالدين) فيربت على نفسه، ويبتسم لنفسه كما يفعل والداه معه، وعندما يعاقب نفسه كما يعاقبه والداه، فيشتم نفسه، أو يصفع خده، أو ينزوي في ركن من الغرفة، إذا فعل فعلة تثير سخط ذاته المثلى، وكأن شعورًا يمتلكه في هذه الحالة بأنه ضعيف حقير القيمة، وكأنه يعاني صراعًا داخليًا، بينما يشعر في الحالة الأولى أنه قوي مستقيم أهل للتقدير والحب، وأن هناك توافقًا داخليًا في نفسه بين ذاته وذاته المثلى. ويشبه هذا التوافق بين الذات المثلى والذات، حالة الأب الفخور بابنه، الذي يفعل كما يشاء الأب في رغبة وطاعة وثقة.

إن الصلة بين الذات والذات المثلى وانعكاسها على المجتمع، تظهر في حالتين متطرفتين: حالة الملانكوليا Melancholia أو ما تسمى بالماليخوليا، أو داء السوداء، أو الاكتئاب، أو الجنون الصامت وحالة المانيا Mania أو جنون العظمة.

ففي الحالة الأولى نجد أن الفرق بين ذات الشخص وذاته المثلى كبيرًا جدًا؛ ولذلك فإن المريض بهذا النوع من الاضطراب العقلى لا يكون فريسة فقط للهم والاكتئاب الشديد، ولكنه غالبًا ما يتهم نفسه

بجرائم وذنوب كثيرة لا يمكن أن تغتفر، بل إنه كثيرًا ما يسمع صوت ضميره، على شكل هذر من تأنيب وتقريع وسباب.

وقد نجد شيئًا قريبًا من هذا الهذر على شكل آخر، في بعض الذين يقاسون حالات نفسية مرضية أخف وطأة من الماليخوليا، مثل ذلك المريض الذي يهم بارتكاب جريمة، فإذا به يرى كأن أباه أو أمه واقفة أمامه، ترنو إليه بعين ملؤها الحزن والكمد. وفي بعض الحالات الأخرى الأخف درجة من هذه، قد يملأ الشخص عندما يهم بارتكاب جريمته، خوف من الله الذي يرى كل شيء، فيتخيل أية ظاهرة من الظواهر مثل الرعد أو الشعور بألم في جسمه، كأنه إنذار من قبل الله، ونوع من التحذير والردع، بل قد يتابع الضمير الشخص ويلاحقه في أحلامه، إذ يظهر له على شكل ضوء مخيف يتبعه، أو عيون كثيرة تحيط به، وتصوب عليه وتقتفي أثره.

أما في الحالة الثانية: حالة المانيا Mania، فإن المريض يشعر بأنه قوي عظيم في قوته، صالح كامل في صلاحه، وكأن ليس في الحياة من أمر يصعب عليه أن يقوم به وينفذه. وهنا تتحد الذات بالذات العليا أو المثلى، على عكس ما يحدث من الانفصال الواضح بينهما في الماليخوليا، وإذن يمكننا أن نعد أولئك الذين شطحوا من أهل الصوفية فشعروا بأنهم الخالق= أشخاصًا مرضت عقولهم، واعتلت نفوسهم، وأصيبوا بجنون العظمة، عندما اتحدت ذات الواحد منهم بذاته المثلى التي ربما كان الخالق نواتها، تماما كما نعد الشخص الذي يشعر بأنه نابليون أو هتلر أو النبي المنتظر مصابًا بهذا المرض العقلي.

وقد يحدث أن يتناوب الاتحاد والانفصال بين الذات والذات العليا في ذلك النوع من الاضطراب العقل المسمى manic depression، أو اكتئاب العظمة، أو سيكلوثيميا Cyclothemia، حيث تنتاب المريض مشاعر فظيعة من الحقارة والضعف، ومشاعر هائلة من القوة والعظمة والصلاح، ويحدث هذا إلى حد ما في كل فرد تقريبًا.

وبالرغم من أن الذات العليا تحل محل الوالدين أو ذوي النفوذ، وتقوم بوظائفهم من الأمر والنهي، والرضا والسخط، فإن الإنسان إذا كان سويًا، لا يستطيع أن يحيا مستقلًا عن حكم المجتمع الذي يحتك باستمرار به، متجاهلًا رضاه عنه، أو سخطه عليه؛ إذ ليس أقسى على الإنسان من أن يجد نفسه منبوذًا من المجتمع، وحيدًا في عالم خاص به من آراء ومعتقدات.

وتتصل حاجة المرء هذه إلى رضاء المجتمع والناس الذين يعيش معهم، بحاجته في عهد طفولته إلى رضاء والديه. كما يتصل أيضًا همه وقلقه وهلعه عند فقدان حب والديه له، وحبهما عليه، ورضاهما عنه، في السنوات الأولى من حياته.

وليس من السهل في أثناء حياة الإنسان في طفولته ورشده أن نميز فيها بين العناصر الخلقية الاجتماعية، والعناصر الأنانية المتصلة ببقائه والمحافظة على حياته. فانفصال الطفل عن والديه، ربما يثير فيه قلقلة شعوره بالأمن والطمأنينة، وبذلك يغمره قلق من النوع البيولوجي أو الواقعي. ولكن زيادة على ذلك، يوجد قلق من نوع آخر يتسبب عن سخط الوالدين، وفتور حبهما له، وعدم إظهارهما علائم الرضا عنه. فإذا

حدث ما يثير هذين النوعين من القلق، كانت حياة الطفل تعسة بائسة شقية. والمثل في ذلك انفصال الوالدين أو أحدهما عن الطفل، بالطلاق مثلًا، وعدم اهتمام الوالد المعاشر للطفل به، نتيجة انشغاله بزوج جديد، لا يشعر الطفل بحنان أو عطف، بل ويعمل على أن يسحب حنان أبيه أو أمه منه. وثمة مثل آخر: مثل الوالدين الأنانيين أو اللذين ترغمهما الحياة –دون أن يستطيعا مقاومتها– على ألا يكترثا بطفلهما الاكتراث اللازم، ويمداه بالرعاية والعناية الواجبة، بل يتركانه في أيدى مربيات جاهلات قليلات الحنان والعطف، أو موزعات لحنانهن وعطفهن على عدد كبير من الأطفال يحتضنهم (كما هو الحال في دور الحضانة)[1] ، بحيث لا يصيب الواحد منهم سوى قسط صغير، لا يكفي لأن يشعره باطمئنان أو أمن، بل قد يشعره بشيء غير قليل من القلق والجزع وربما الهلع. وأمثال الآباء والأمهات الأنانيين أولئك الذين يتلهون عن الطفل بالاستمتاع بحياتهم، بين خروج وزيارات متكررة للأصدقاء، وارتياد للملاهي ودور التسلية، والانغماس في الحفلات العامة والخاصة، ومثل الآخرين أولئك الذين يجذبهم كسب العيش إلى خارج منازلهم، بحيث لا يرون أطفالهم إلا لمامًا.

ونجد هذين النوعين من القلق في حياة بعض الناس، بعد أن يكبروا وينضجوا، مثل الموظف الذي يفصل من وظيفته، أو المجرم الهارب من العدالة، أو الذي قاسى العقوبة التي وقعها عليه القضاء بحق، ثم خرج

---

(1) أقصد دور الحضانة التي تضم الطفل في سن مبكرة جدًا مثل سنة أو سنتين، والتي يبقى الطفل فيها نهارًا وليلًا.

إلى الحياة، ليجد الناس يبتعدون عنه، وينفرون منه ولا يقبلونه صاحبًا، أو عاملًا، وكأنهم قد وصموه إلى الأبد بوصمة العار، وحكموا عليه بأن يعيش بقية حياته بعيدًا عن حظيرتهم، ومثل الحبيب الموله المهجور، والمرأة المطلقة، والعاطل الذي لا يجد عملًا.

إن كل فرد منا لديه (حاجة لأن يُحتاج إليه)، وهي امتداد الحاجة الطفل الصغير إلى الأمن والطمأنينة باستشعاره عطف والديه عليه، وإحساسه بأنهما بحاجة إليه، أو بلسان علماء النفس الأرثوذكس إنها أثر لدافع عاطفة اعتبار الذات، التي تعمل على أن يشعر الإنسان بأن له قيمة واعتبارًا في الحياة.

فالعاطل الذي لا يجد عملًا لمدة طويلة، قد ينمو فيه شعور بحقارة نفسه، وضآلة قيمته، وعجزه عن أن يندمج في المجتمع، أو أن يجذب المجتمع إليه. وقد يؤدي هذا الشعور إلى أن ينظر للمجتمع نظرة عداء، فيهاجمه ويكسر نظمه، ويرغمه على أن يهتم به، بجموحه وإجرامه، أو قد يتضخم في نفسه الشعور بالحقارة والعجز حتى يفنى، أو يفني نفسه بنفسه.

وقد يكون من أهم العوامل التي تساعد على علاج الحدث الجامح، بل في بعض الأحيان، قد تكون الطريقة الوحيدة للعلاج، أن ندمجه في مجموعة من الناشئين القريبين من عمره، وأن تثير اهتمامه وحماسته إلى عمل مشترك يقومون به، ويضطلع هو بنصيب فيه. وقد تصلح الطريقة نفسها مع المجرم الراشد، بل ومع عصابة من مجرمين.

ومن هنا نستطيع أن نلمس أحد الأسباب النفسية، التي من أجلها

تندلع الثورات في الشعب، وتنشب الحروب بين الشعوب المختلفة؛ فترفع الحكام على الشعب، وإهمالهم لشؤونه، وضغطهم لحريته التي كفلها له القانون والتشريع السائد، ونظرتهم له كأنه عبد مستعبد، وغير ذلك مما يشعر الشعب بضآلة شأنه، واضمحلال قيمته، كل أولئك يدفع الشعب لأن يجمح ويكسر النظم الاجتماعية، ويحطم القوانين، فينتشر بذلك الفساد وتعم الفوضى، حتى يسترد الشعب اعتباره، أو يشعر بأن له قيمة وشأنًا.

ومن هنا نستطيع أيضًا أن نتبين الأثر الفظيع في الأمن الدولي لاستعمار الشعوب لبعضها، فالاستعمار بصوره المختلفة من احتلال أو وصاية أو حماية أو انتداب، معناه إشعار الشعب المستعمر بضعفه وتفاهة قيمته بالنسبة للشعوب الحرة. وهنا أيضًا يجمح الشعب المستعمر، طال أمد الاستعمار أو قصر، وتشتعل فيه الثورات جهرًا، أو سرًا ثم جهرًا، حتى يرجع إليه الشعور بأنه شعب ذو قيمة، وأنه كفيل بأن يستمتع بحياة الحرية، ويعيش في كرامة وأمن وطمأنينة.

وقد دلت البحوث التي أجريت في الانتحار على أن شعور المرء بأنه محتاج إليه، وذلك بقيامه بمسؤوليات ذات بال في الحياة، يجعله في مأمن من أن ينتحر، إذا ما ادلهمت عليه بعض المصائب، مثل فقدان عزيز، أو ابتلائه في مركزه أو ثروته، أو غير ذلك، بينما مجرد شعوره بأن عمله أو وجوده في الحياة، ذو قدر ضئيل وأهمية قليلة، يكفي لأن يخل توازنه، إذا ما أحاطت به ظروف كئيبة، أو دهمته ملمة أو مصيبة، فيقضي على نفسه بنفسه.

ومن هنا أيضًا نلمس جانبًا من جوانب أهمية الروابط العاطفية أو قل

الروحية، بين الإنسان وغيره، تلك الروابط الدائمة التي تضع على عاتقه بعض المسؤوليات، وتشعره بأنه محتاج إليه، مثل الصلة بينه وبين والديه، أو إخوة له، ومثل الصلة بينه وبين زوجه أو أولاده، أو بينه وبين علم أو مبدأ يعتنقه، ويكرس أكثر جهوده له؛ إذ إن هذه الروابط تثير فيه الشعور بأنه محتاج إليه، وبأنه من أجل ذلك ذو شأن وقيمة. بينما أن انعدامها أو ضعفها يجعل موقفه من الناحية النفسية، موقف العاطل الذي أشرنا إليه من قبل، وتتراءى له حياته تافهة رجراجة غير متركزة على أساس متين، وإن هي تركزت على أساس مادي، مثل زواج من أجل المادة فقط، أو جمع ثروة، أو الارتقاء في مناصب مادية، فسرعان ما يتآكل هذا الأساس بمضي الزمن، أو يرتج ويترنح؛ لأن المادة سريعة التبدل والتغير، وكذلك تكون روابط الإنسان بها. وإذا به يشعر بفراغ فظيع رهيب، يجعل فؤاده خائرًا وعقله حائرًا، ونفسه قلقة مضطربة، وإذا بالذات العليا تتفكك قواها، وينفرط عقدها، وإذا بالذات السفلى تجد الفرصة سانحة لأن تمسك بزمام الإنسان وتوجه سلوكه، وبذلك يقع فريسة لانحلال نفسي وجسمي معًا.

ويجب أن أذكر هنا أن أهم هذه الروابط هي الروابط الزوجية، إذا كان الزواج قائمًا على أساس من تفاهم وتعاون في تحمل مسؤوليات الحياة، وجعلها أسعد ما يمكن؛ وذلك لأن الروابط الزوجية أكثر الروابط دوامًا، لاستنادها إلى أسس قوية من عواطف وغرائز رئيسية، ولأنه يثمر نسلًا يزيد من شعور كل من الزوجين بقيمته وأهميته، عندما يرى النسل ينمو ويشتد، فينمو تبعًا لذلك شعور الزوج بأهمية حياته، وقيمة وجوده، وخطورة رسالته.

بل إننا لنلمس في بعض الحيوانات التي تستطيع أن تستشعر عاطفة

بدائية من الحب، ويكون الفرد منها روابط مع غيره من نوعه من الجنس الآخر، نلمس أن حياة كل منها تصبح ذات قيمة خاصة لوجود تلك الروابط، وكأنه قد ازداد نشاط وحيوية وحبًا في الحياة. والمثل في ذلك الحمام واليمام والكلاب، بل نجد أن فقدان هذه الروابط لسبب من الأسباب يجعل حياة الفرد منها كئيبة ضحلة، وكأنها خلت من كل معنى وقيمة، حتى إنه ليعاف الطعام، ويعاني الضعف والقعود والفتور إلى أن يهلك، وكأنه أراد فعلًا أن يهلك ويتخلص من الحياة.

يجب أن أؤكد للشباب وأهلهم، خصوصًا في هذا العهد الدقيق الذي يمر به الشرق اليوم، والذي تتزعزع فيه بعض المثل التي أشربها الناس وتمثلوها من قديم، أن الزواج أكبر مأمن للإنسان من أن يحيا حياة باردة فاترة، ومن أن يتضاءل اعتباره لذاته، كائنًا له قيمته وشأنه، وله رسالة سامية حملته الطبيعة إياها منذ بدء الخليقة، وأودعت دافعها في تركيبه العقلي، وشحنته بأعظم قوة وأكبر طاقة، ومن أن يدب في فيافي الحياة، دبيب الضال الغارق في لجج لا يتبين من صخبها شاطئًا يرسو عليه، ولا يرى خلالها نورًا يهتدي به إليه.

ولذلك كان الزواج نظامًا اجتماعيًا منذ فجر التاريخ الإنساني، ولذلك أيضًا باركته الأديان السماوية، وقدسته المذاهب البشرية. ولكن أصبح الأمن ويالالأسف مثارًا للخوف، وأضحى الملجأ عرضة للعصف، وليس هذا إلا مظهرًا للخوف الداخلي والعصف النفسي اللا شعوري. إنه عرض للصراع العقلي الذي تزخر به نفوس بعض الشباب في دور التطور الذي يمر به الشرق الآن، أو ما يمكن أن نسميه بدور الانتقال من حياة

الدكتاتورية الذكرية، التي يبدو الرجل فيها كل شيء، والمرأة لا شيء أو بعض الشيء، التي فيها الرجل هو السيد الحاكم، والمرأة مسودة محكومة. إلى حياة جديدة تلمع فيها مبادئ فريدة، تقوم على أساس ديموقراطي من تعاون الرجل والمرأة معًا في الحياة تعاونًا روحيًا واجتماعيًا، وربما ماديًا أيضًا.

فالرجل ولما يتمثل تمامًا المبادئ الحديثة تمثلًا راسخًا بحيث تصبح جزءًا ثابتًا في تركيبه النفسي، يطغى على ما تمثله من قبل في ضميره من التقاليد القديمة، يخشى أن تزيحه المرأة عن العرش الذي استوى عليه قرونًا عديدة وأجيالًا مديدة. وتخشى المرأة، وهي تتمثل هذه المبادئ أسرع من الرجل؛ لأنها تنطوي على إعلاء شأنها ورفع قيمتها، أن يعاشرها الرجل على هدي التقاليد القديمة، فيكون آمرًا ناهيًا، يريدها على أن تفني شخصيتها في شخصيته، وعلى أن تجعل كرامتها شيئًا ثانويًا بالنسبة لكرامته.

ويحدث هذا الصراع أكثر ما حدث، ويعانيه أشد من يعانيه، المثقفون من الجنسين؛ لأن الثقافة تشرب الذات العليا بمثل جديدة، قد تتعارض مع ما تمثلته من قبل، وأشربت به من الوالدين وتقاليد الأسرة وتقاليد المجتمع السائدة؛ وبسبب هذا نجد التهيب من الزواج والتخوف منه بين الشباب المثقف أكثر من وجوده بين غيره.

وهذا الصراع الداخلي الذي يحدث في الذات العليا بين ما تمثلته من تقاليد قديمة، وما تتمثله من مبادئ حديثة، هو السبب الحقيقي الخفي لتهيب الزواج، والتردد إزاءه أو الإحجام عنه. أما ما يبديه الشاب

من أسباب لذلك، كالعجز المادي، أو ترفع الفتاة المثقفة عن القيام بمسؤوليات الحياة الزوجية، وما تبديه الفتاة من رغبتها في أن تجني ثمار ثقافتها بالنزول إلى ميدان الحياة، وعجزها عن أن تقوم بمسؤوليات الزواج، مع مسؤوليات الحياة العملية خارج المنزل، أو من أن الزواج يربطها إلى البيت الضيق المحدود، فتصدأ مواهبها، وتضيق مآربها، ليس كل ذلك إلا تبريرًا للصراع الداخلي الذي تجيش به نفس كل منهما، والذي كثيرًا ما يدفعه أو يدفعها إلى حياة زوجية بائسة لا انسجام فيها ولا اتفاق.

ولست مزمعًا أن أتكلم هنا عن سيكولوجية الزواج، ولكن أود فقط أن أقول إنه من الخير للفتاة أو الفتى أن يواجه ذلك الصراع الداخلي عندما يفكر في الزواج، ويعمل على التوفيق بين قطبيه، ويختار شريكة حياته في ضوء هذا التوفيق، كما أنه من الخير له أن يساعده أهله على اختيار زوجته اختيارًا يجعل حياته وحياتها سعيدة، غير متحيزين في ذلك لرغباتهم الشخصية أو تقاليدهم الخاصة، ففتاهم ليس صورة مطابقة لهم، وزمانه وعصره لا يماثلان زمانهم وعصرهم. فمثلًا خير للفتى المتمسك بالتقاليد القديمة أن يتزوج فتاة لا تجد غضاضة في أن تعيش معه في ظل هذه التقاليد، وخير للثائر على هذه التقاليد أن يبحث عن فتاة ثائرة عليها، وهكذا.

عدم تكامل الذات المثلى:

بتبين لنا ما سبق أن ذكرناه في مثال الزواج وأهميته في حياة الإنسان، أن الذات المثلى، أو المثال التي تتكون منها، قد تتعارض وتتصارع؛ إذ رأينا أن التقاليد التي يمتصها المرء من أهله، فتصبح بذلك

مثلًا تدخل في تكوين ذاته العليا أو ضميره، يسير على هداها دون أن يشعر، قد تتعارض مع مثل أخرى ربما تنشأ عن مبادئ جديدة تسود في محيطه، وقد يتمثلها الإنسان أيضًا.

ويتضح من هذا أن الذات المثلى، التي هي أهم عامل في تكوين الضمير، بل هي نواته التي يشربها الإنسان عن المتنفذين فيه، وخصوصًا والديه في أول الأمر، ليست تركيبًا منسجمًا، وقوة موحدة، توجه الإنسان في الحياة وجهة واحدة؛ وذلك لأن وجهات ذوي النفوذ والسلطان على الفرد من والدين ومربين ومعلمين وغيرهم قد تختلف، بل وقد تتعارض وتتضارب، وبذلك لا يحدث تكامل في مثل الإنسان أو في ذاته المثلى.

ولقد درس علماء النفس، الاختلافات بين الوالدين في توجيههما للطفل وأثرها في تكوين ذاته العليا، ومن ثم في سلوكه في الحياة وفي أخلاقه، بل وفي صحته النفسية، فقد يكون الأب صارمًا مع الطفل بينما تكون الأم لينة متساهلة، وبذلك يمتص الطفل منهما مثلين أو اتجاهين خلقيين، يسير بمقتضاهما في حياته، فيكون صارمًا في بعض الأحيان، ولينًا متساهلًا أحيانًا أخرى. والحياة مليئة بهذا الصنف من الناس، نجد منهم صارمًا بل قاسيًا مع أولاده ومرؤوسيه مثلًا، بينما يكون لينًا متساهلًا، بل وضعيفًا الضعف كله مع زوجه أو رئيس له.

ونجد مثل هذا الشخص متبدل الآراء، متقلب الأحكام في كثير من أمور الحياة وقضاياها. فهو يعضد رأيًا، أو يصدر حكمًا على أمر، وإذا به بعد ذلك يفنده أو ينقضه؛ ذلك لأن ذاته المثلى أو ذاته العليا تتكون

من قوى ليست متماسكة ولا متساندة، بل متعارضة متضاربة.

وسبب آخر لعدم تكامل الذات المثلى أو الذات العليا في الإنسان، هو اتجاه الوالدين –وخصوصًا الأم في أول الأمر– نحو الطفل، فهي مصدر حبه، ومنبع رعايته وحمايته، ثم إنها في الوقت نفسه مناعة له، تقف في سبيل تحقيق الكثير من رغباته، وتثير فيه بسبب ذلك مشاعر العدوان بل البغضاء. وإذا بالذات تتمثل الأم على هذا الشكل: تتمثلها قوة محبة راعية حامية، وقوة بغيضة مانعة معادية، وتجد الذات نفسها بعد ذلك محكومة بقوتين متعارضتين في الضمير، فلا تستطيع أن تهيء نفسها لهما معًا. ويظهر أثر ذلك في السلوك المتناقض للفرد تجاه شخص واحد، فهو يحبه ويكرهه معًا، وهو يقبل عليه حينًا، ثم يضيق به وينفر منه حينًا آخر، خصوصًا إذا بدأ ينتقده ويسدي له بعض النصائح أن يقلع عن تصرف معيب، اتجاهه ضار به في الحياة، أو إن حال ذلك الشخص دون استمتاعه بما يريد، أو كان سببًا في الحد من حريته. ويفسر لنا هذا في بعض الأحيان، تبرم الإنسام بأعز من يعزه، وأحب الناس إليه، تبرمه بوالديه مثلًا، أو زوجه أو أولاده، أو أصدق أصدقائه. وقد يصل هذا التبرم والضيق، إلى قلق نفسي فظيع ينشب في أعصابه، أو إلى شذوذ في السلوك تجاه أحبائه، فهو يقبل عليهم ثم يدبر، ويخلص لهم ثم يغدر، ويبقى مترددًا بين هذين النقيضين في السلوك.

وقد تلجأ الذات إرضاء لهاتين القوتين المتعارضتين، المتمثلتين

المتقمصتين في الضمير، إلى إسقاطه[1] على أشياء خارجية: على أشخاص عطوفين محبين يقابلون مظهر الحب فيه، وعلى أشخاص طالحين قاسين يمثلون ما به من مظهر العداء والبغضاء. وأوضح مثل لذلك، القصص الخرافية، التي نجد الأطفال يستمتعون بها الاستمتاع كله، يطلبون المزيد منها، تلك التي تضم أبطالًا عطوفين طيبين، وأبطالًا أشرارًا قاسين. فالأم الحنون أو الملاك الخيرة العطوفة، تمثل صورة الأم الحقيقية المحبة الراعية في الضمير، والساحرة الخبيثة، أو امرأة الأب القاسية، تمثل صورة الأم نفسها المناعة المعادية، والرجل الصالح، أو الملك الكريم، يمثل صورة الأب الشفوق الحنون في الذات العليا، والغول أو العفريت الشرير يمثل صورة الأب نفسه القاسي، الشديد في فظاظته وغلظته.

وقد يسقط الطفل ضميره على دمية من الدمى، تمثل أمه أو أباه مظهريه المتناقضين المتمثلين، فهو يقبلها، ويتحبب إليها ويخدمها، ثم يشتمها ويبصق في وجهها ويتنكر لها ويحطمها.

---

(١) الإسقاط عملية لا شعورية، بها ينسب المرء بعض صفاته لغيره. فمثلًا قد نجد شخصًا كذوبًا يتهم غيره باطلًا بالكذب، ويشعر نتيجة لذلك بشيء من الراحة، إذ كأنه بإسقاطه هذا العيب على غيره قد محاه من نفسه. وفي الحالة التي نحن بصددها قد يسقط الإنسان القوتين المتعارضتين المتمثلتين في ذاته العليا اللتين لم يستطع لهما توفيقًا، وهما مظهر أمه أو أبيه من حيث أنه قوة حبيبة راعية من جهة، وقوة بغيضة مناعة من جهة أخرى، يسقطهما على شخص مثل صديق أو زوج، أو شخصين مثل بطلين في قصة. وكأنه يرى فيه أو فيهما أمه أو أباه بمظهريه المتعارضين، فيحب شخصًا ويكره الشخص نفسه، أو يحب بطلًا عطوفًا في قصة ويكره بطلًا آخر قاسيًا في القصة نفسها. وكأن الصراع الداخلي الذي يقاسيه المرء بين القوتين المتعارضتين يخف وطأته بهذا الإسقاط.

وسبب ثالث لعدم تكامل الذات المثلى، ومن ثم الضمير: هو أن أكثر المظاهر الصارمة الزاجرة للذات العليا متمثلة في الحقيقة من الذوات العليا للوالدين، لا من الوالدين نفسهما. فالوالدان في معاملتهما للطفل، كثيرًا ما يريدانه أن يتصرف ويسلك سلوكه كما يحبانه أن يتصرف ويسلك، لا كما هما يفعلان. أي أنهما يريدانه على أن يسير تبعا لمثلهما العليا، لا تبعا لما هما عليه في الواقع..وكأنهما بذلك يأمر ان الطفل أن يفعل كما يقولان، لا كما يفعلان. وبسبب هذا تنتقل التقاليد والعادات الاجتماعية في الأسرة والمجتمع العام من جيل إلى جيل كما سبق أن ذكرنا من قبل، إذ عندما يصبح الأطفال آباء وأمهات، فإنهم يفعلون مع أبنائهم مثل ما فعل والدهم معهم.

وعلاوة على تمثل الطفل وتقمصه للمثل العليا للوالدين، فإنه يتمثل في ضميره أيضًا والديه الحقيقيين الواقعيين.

وإذا كان الفرق شاسعًا بين مثل الوالدين النظرية التي يمتصها الطفل عنهما، ومثلهما العملية الموجهة لسلوكهما وأفعالها التي يتمثلها أيضًا في ذاته العليا، ينشأ الطفل مرائيًا منافقًا، يقول ما لا يعني، ويعني غير ما يقول، ويمارس ما لا يؤمن به، ويؤمن بما لا يمارسه، بل إنه قد يعمل على العكس تمامًا من تعاليم والديه ومثلهما العليا التي أشربها في ضميره، إذا كانت تلك التعاليم والمثل طيبة صالحة رفيعة؛ لأن الذات السفلى تجد في هذا البون بين القوتين المتمثلتين في الضمير عن الوالدين، فرصة ذهبية لأن تملأ القوة الأقرب شبهًا بها، وتتحالف معها سرًا ضد قوة التعاليم والمثل، فتدفع الذات لتحقيق مآربها، والانغماس في شهواتها.

وثمة سبب آخر لعدم تكامل الضمير هو تمثل الإنسان في مجتمعه مثلًا تناقض أو تتعارض مع ما تمثله من قبل عن والديه وبيئته المنزلية الأولى. وقد أشرنا إلى هذا من قبل [١].

وثمة سبب آخر لعدم تكامل الذات المثلى والضمير وإثارة صراع فيه، هو إصرار الوالدين على أن يقلدهما الطفل في بعض التصرفات، ولا يقلدهما في بعض التصرفات الأخرى. فهما يطلبان منه أن يقلدهما في نظافتهما وعطفهما على إخوته، وضبطهما لمشاعره، ولكن لا يسمحان له أن يسهر مثل ما يسهران، ويدخن كما يدخنان، وأن يصحبهما في جميع زياراتهما، وأن ينام معهما إلى غير ذلك. وبمعنى آخر فإنه يطالب بأن يتمثل ما هو ثقيل بغيض لقلبه من حياة الكبار، ويتمثل في الوقت نفسه كل ما هو لذيذ سار على أنه محرم ومحظور. ويبقى هذا جزءًا ثابتة من شخصيته، وقوة لا شعورية في ضميره تزجره على الدوام، وتمنعه من أن يقوم في حياة الرشد ما يجب أن يقوم به بناء على ما تمثله من مجتمعه. وكأن هناك صراعًا عنيفًا يحدث بين طبقات الضمير اللا شعورية الطفلية العميقة التي تحوي تلك المحرمات والمحظورات، وبين المثل شبه الشعورية التي يتمثلها في الطبقات السطحية من الضمير نتيجة لاتصاله بالنظم التي تسود مجتمعه. ومعنى ذلك أن يشعر الإنسان في بعض الأحيان أنه مسموح له أن يقوم بعمل معين، بل قد يشعر أن من واجبه أن يقوم به، ولكن قوة خفية، ودافعة لا شعورية، وهاتفة باطنية، بدوي من أعماق ضميره، بأن هذا الواجب محرم عليه. والمثل في ذلك ما سبق أن

---

(١) انظر صفحة ٤٥ من هذا الكتاب.

ذكرنا في الباب الأول من أن الضمير قد يمنع الإنسان من ممارسة مهنته التي أعد نفسه لها، فيجعله يتبرم بها، أو يهرب منها.

والمثل في ذلك أيضًا، مثل الرجل الذي كان شديد الحب لأمه حتى إذا مرضت مرض الموت، أتت صديقة لها ترعاها وتعني بمنزله، فلما ماتت الأم، أراد الرجل أن يظهر للصديقة عرفانه بجميلها فخطبها، وتحدد موعد زواجهما، وإذا بالرجل يمرض مرضًا فجائيًا يوم الزواج الموعود فيؤجله إلى يوم آخر، فلما حان ذلك اليوم انتحر؛ وتفسير ذلك أن الرجل كان يرى بشكل لا شعوري شبهًا بين هذه السيدة وأمه، وأن حبه لأمه بالعنصر الجنسي المكبوت طبعًا، قد تحول نحو هذه السيدة، فكأنه بزواجه بها يتزوج أمه المحرمة عليه، ولم تطق ذاته العليا ذلك، فأمرضته في أول مرة حتى لا يتم الزواج، ثم أرغمته على أن ينتحر في المرة الثانية حتى لا يرتكب الخطيئة بزواجه من تلك السيدة.

من كل هذا نرى، أن تكوين الضمير المتكامل في الإنسان مهمة غير يسيرة مطلقة، بل وفي بعض الأحيان غير ممكنة، نتيجة للظروف الاجتماعية التي تحيط الإنسان منذ طفولته، والتي لا قبل له على تغييرها أو التأثير فيها، لقلة حيلته وضعف قواه إزاءها، فكم من طفل يضطر لأن يعاشر أبًا سكيرًا آثمًا منحل الأخلاق مفكك المثل، وكم من طفل يضطر لأن يعاشر زوجة أب أو زوج أم كاره له قاسٍ عليه، يعامله كما لو كان حملًا ثقيلًا بغيضًا، وكم من طفل يعاشر زوجين منقسمين، يعيشان في شقاق مستمر، وخلاف دائم، وكم من طفل يمتص من والديه مثلًا طيبة صالحة، فإذا بالظروف تدفعه لأن يعيش وسط مجتمع مناقض في مثله

لما تمثل من والديه، يعج بأنواع الرزايا والرذائل والإجرام، فتزلف إليه هذه المثل الاجتماعية ويتمثلها ضميره في طبقاته السطحية، ثم تنخر فيه شيئًا فشيئًا حتى تواجه مثله العميقة الأولى التي تقمصها من والديه، وإذا بصراع عنيف داخلي يحدث في الضمير يرهق الذات ويجعلها في حيرة مرة، ويستنفد جزءًا كبيرًا من طاقتها ونشاطها العقلي، فيخر المرء متعبًا مريض النفس والعقل والجسم. وقد تتغلب المثل الفاسدة على الصالحة في السيطرة على الذات، تعاونها في ذلك الذات السفلى التي تتملق الذات عن طريق ذلك التركيب الدخيل الجديد الفاسد في الضمير، فتندمج الذات في المجتمع وتنغمس في شروره، ويبرر الإنسان ذلك بأنه يريد أن يعيش، أو بأن على عاتقه مسؤوليات أسرة، وتربية أطفال، وغير ذلك.

ومن أجل هذا نجد في تلك المجتمعات المضطربة بلجج الفساد، المضطرمة بنيران الشرور، أفرادًا ينقلبون من حياة طهر وصلاح، إلى حياة شر وطلاح. وليت الأمر ينتهي إلى ذلك، بل إن هؤلاء يصبحون مثلًا لأطفالهم وذويهم، فيمتصون منهم تلك النزعات الجديدة وتنطوي عليها ضمائرهم التي على هداها يسيرون في قافلة الحياة.

وهكذا يتفاقم الشر، ويدب الفساد سريعًا في أوصال المجتمع. وتحيا الناس حياة بهيمية، حياة الوحوش في الأدغال، حياة غدر وخيانة وفوضى أخلاقية، وابتلاع القوي للضعيف، وبذلك يتفكك المجتمع كما تفككت ضمائر الناس وانحلت، فطغت عليها ذواتهم السفلى أو ميولهم البهيمية الهمجية.

إن تكوين الضمير –كما سبق أن ذكرنا– يبدأ منذ الطفولة الأولى، وينبع من الوالدين. فإذا أردناه أن يكون ضميرًا منسجمًا في قواه، متكاملًا إلى حد بعيد، فيجب على الوالدين أن يعملا على أن تكون المثل العليا التي يتمثلها الطفل منهما متكاملة متضافرة، وذلك:

أولًا: بانسجامهما معًا في حياتهما ولو من أجل الطفل.

وثانيًا: باتفاقهما معا في طرق تربيته، فلا ينقض الواحد منهما ما يبرمه الآخر مع الطفل، ولا يكون صارمًا والآخر قاسيًا.

وثالثًا: بأن يسير كل منهما على طريقة واحدة، ومبدأ واحد في تربيته للطفل، فلا يكون صارمًا معه حينًا في أمر من الأمور، ثم متساهلًا حينًا آخر في الأمر نفسه.

ورابعًا: أن ينظرا إليه طفلًا ينمو، لا رجلًا اكتمل نموه، فيطبقان عليه معايير الراشدين، ويرسمان له ذاتًا مثلى أرفع بكثير من قواه وإمكانياته.

ويساعد على تكامل قوى الضمير، الانسجام الذي يحدث في تربيته في منزله ومدرسته، وهي المجتمع الثاني الذي يمتص الطفل منه قوى جديدة من قوى الضمير. فالأوامر والنواهي في البيت والمدرسة يجب أن تسير دائمًا في اتجاه واحد، ولذلك ينادي المربون دائمًا بوجوب إيجاد صلة وثيقة بين البيت والمدرسة، وتبادل الرأي بينهما في تنشئة الطفل.

كما يساعد على تكامله أيضًا، أن يكون الآباء والأمهات والمربون

مثلًا عليا واقعية للناشئين. فلا يأمر المربي الطفل أمرًا ينقضه هو في حياته الخاصة، ولا ينهاه عن شيء يقوم هو به.

ويجب أن تكون النظم الاجتماعية السائدة، نظمًا صالحة، وأن يكون المتنفذون على هذه النظم أشخاصًا صالحين، ذوي مثل عليا من عدل وإيثار وأمانة وغير ذلك.

وأهم هذه الشروط كلها لتكامل الضمير، الشرط الذي يتصل بالوالدين الذين هما نواته وأساسه، وهو لحسن الحظ أسهل الشروط في إمكان تحقيقها، إذا ما تذكر الوالدان أنهما مسؤولان عن الطفل، وأن من حقه عليهما أن يتعهداه تعهدًا صحيحة، ولو أدى الأمر لأن يؤدبا نفسهما من جديد.

بهذه الشروط وبغيرها يعيش الإنسان في أمن مع نفسه، وفي أمن مع غيره، وفي أمن مع النظم الاجتماعية؛ لأنه يصبح ذا ضمير منسجم في تركيبه، آمن من أي صراعات خطيرة تنشب بين قواه.

الباب الثالث

عقاب الضمير والجريمة والعقاب

العقاب والحاجة إليه:

وجدنا من البابين السابقين أن النفس البشرية نفس معقدة، وذلك للسببين الآتيين:

(أولًا): لأنها عدة أنفس مختلفة: نفس همجية وحشية لا تعرف خيرًا أو شرًا، ولكنها تسوق الإنسان لتحقيق دوافعها الغريزية في حالاتها البدائية، وهي فطرية غير مكتسبة. ونفس واقعية تتكون في حياة الفرد نتيجة اتصالات النفس الأولى بحياة المجسات التي يعيش الإنسان فيها ويتأثر بها، وتزخر هذه أيضًا برغبات مكبوتة تنافي المبادئ الاجتماعية والخلقية. ثم نفس عليا أو ضمير يتكون نتيجة تحكم أولي الأمر في الذات، بدءًا بالوالدين منذ الطفولة الأولى، واضطرار الذات لأن تتمثلهم حكامًا آمرين، ومحبين عطوفين، وناهين قاسين.

(ثانيًا): لأنه ليس من السهل إيجاد تناسق وتوافق بين هذه الأنفس الثلاث؛ وذلك لأن كلًا منها لها أهداف تغاير الأخرى، وكلًا منها من أجل ذلك تتربص الفرص بالأخرى حتى تتغلب عليها، وتنفرد دونها بالحكم في توجيه سلوك الإنسان. فالضمير يتحكم في النفس الدنيا أو الذات السفلى، ويمنعها من أن تحقق أهدافها بالشكل الوحشي الذي

جبلت عليه، ويتحكم أيضًا في الذات أو النفس الواقعية، فيمنعها من أن تحقق الرغبات التي تتناقض مع النظم الاجتماعية والتقاليد والمثل الخلقية، التي تكون الجزء الأكبر من الضمير. ثم إنه يقف في الوقت نفسه حارسًا فظًا غليظ القلب، لما في تكوينه من عناصر الشراسة والقسوة التي تكلمنا عنها من قبل.

وتقف الذات بين المطرقة والسندان، تهزها الذات السفلى من الحضيض ويمسك بأذنها الضمير من أعلا، فإن خالفته شدها بقوة وعنف، وكشر عن أنيابه لها، وعاقبها عقابًا مبرحًا، قد تقع بسببه فريسة لأمراض مختلفة، ربما تنضح على جسم الإنسان.

ولأهمية العقاب رأيت أن أتناوله في هذا الباب مبينًا أثره في سلوك المرء، سواء كان صادرًا عن الضمير أو عن قوى خارج الضمير.

ليس من شك في أن إحدى العواقب الهامة لتكوين الضمير –كما أشرنا إلى ذلك من قبل– هو بزوغ الشعور بالذنب إذا ما قام الإنسان بما ينافي الضمير، أو فكر مجرد تفكير في ذلك. وهذا الشعور خاص بالإنسان في الغالب، ولو أننا قد نجده بشكل أولي بدائي في بعض الحيوانات الراقية الأليفة مثل الكلب. ففي بعض الأحيان عندما يقوم هذا الحيوان بعمل غير مسموح له، نتبين عليه شيئًا من مظاهر الشعور بالخطيئة من غير أن يوجه إليه لوم، أو يفرض عليه عقاب.

والذنب قام على الخوف، ولكنه يختلف عنه في أنه يستلزم للشعور به، تكون عواطف خلقية تهدينا إلى ما ينبغي لنا أن نفعله، وما لا ينبغي

لنا أن نقر به، أما الخوف الذي يثيره الذنب ثم يندمج فيه بعد ذلك، ويكون معه وحدة متكاملة، فهو خوف من العواقب المؤلمة التي قد نقاسيها نتيجة عدم السير في ضوء تلك العواطف الخلقية. وتختلف هذه العواقب في النوع، من تعذيب جسمي، أو لوم أو سحب للحب، إلى شعور صرف بالذنب والحقارة وبلبلة النفس وقلقلة البال. وتختلف في الدرجة من صفعة الوالد أو لوم بسيط يوجهه، إلى حكم بالإعدام يوقعه القانون، ومن وخزة ضمير إلى شعور دائم بالخزي والعار، بل إلى الانتحار. والذنب، كأية حالة انفعالية مثل الغضب أو الاشمئزاز، هو حالة نفسية من التوتر. ولكن الذنب بالرغم من ذلك، يختلف عن الانفعالات البسيطة مثل الخوف والغضب والاشمئزاز وغيرها، في أنه لا يتصل، كما يتصل أي انفعال من تلك الانفعالات، بنوع خاص معين من السلوك، محدود في الغالب تحديدًا طبيعيًا حيويًا. فالخوف يتصل بالطبيعة بالهرب، والغضب بالاعتداء، والاشمزاز بالنفور. وحالة التوتر التي تنشأ عن إثارة كل من هذه الانفعالات الثلاثة تعالج بالقيام بالسلوك الذي يتصل بها: بالهرب في حالة الخوف، أو العدوان في حالة الغضب، أو النفور في حالة الاشمئزاز. ولكن الشعور بالذنب انفعال خلقي اجتماعي؛ ولذلك يجب أن يعالج التوتر الناشئ عن إثارته بشكل خلق اجتماعي أيضًا. حقيقة إن الذنب يتضمن ارتكاب خطيئة أو على الأقل إغراءًا بارتكابها، والخطيئة تضر بالغير ماديًا أو عقليًا أو اجتماعيًا. والإنسان، مثل الحيوان، يغضب إذا أصابه أحد بضرر، ويسلك تجاهه سلوك العدوان. فإذا كان هذا العدوان غير مباشر، وقائمًا على أساس من

التفكير، سمي انتقاما، وعندما يصطبغ العدوان بصبغة أخلاقية، أي يوجه ضد الشخص الذي ارتكب الخطيئة سمي عقابًا. وبذلك يتضح لنا أن العقاب الخارجي، ينشأ عن الدافع الطبيعي للعدوان.

والأفعال والتصرفات التي تثير الذنب، لكونها أفعالًا وتصرفات قد تسيء للغير، توقع القائم بها تحت سوط العقاب. وباقتران هذين الذنب والعقاب، يتعلم المرء أن يتوقع العقاب دائمًا عندما يشعر بالذنب.

وتوقيع العقوبة على المذنب، يعمل على أن يحرر أولئك الذين أصابهم بالضرر، من مشاعر الحنق والغضب التي أثارها فيهم، تسببه في الإضرار بهم. وبذلك يهدأ غضبهم بعد توقيع العقوبة عليه. ويمكن أن ينطبق هذا على الوالدين عندما يذنب طفلهم، ويمتص الطفل اتجاههم العدواني المعاقب نحوه، ويتمثله في نفسه عندما يتكون الضمير عنده.

ليس غريبًا إذن أن يتعلم المرء في الحياة، ليس فقط أن يتوقع العقوبة عندما يذنب، ولكن أيضًا أن يتحرر من ذنبه، ويستشعر الراحة عندما يعاقب، نتيجة لتمثله صورة والديه اللذين يضرانه عندما يذنب بأن يعمل ما لا يرضيهما مثلًا. وكما أن الوالدين كانا يستشعر أن الرضا في هدوء سورة غضبهما عند توقيعهما العقوبة على طفلهما، فكذلك ترضى الذات العليا أو الضمير، وهو وريث الوالدين عندما يوقع العقاب على الذات. ولكن الضمير قد يكون أقسى بكثير من الوالدين نتيجة وجود المشاعر العدوانية المتجهة ضد ذات الطفل فيه، كما بينا في العامل الثالث

لتكوين الضمير الذي تكلمت عنه من قبل[1]؛ ولهذا السبب قد يوقع الضمير على الذات عقوبة قاسية لا تتناسب مع الذنب الذي اقترفته.

فالذنب إذن يثير حالة توتر بين الذات والذات العليا أو الضمير، يماثل التوتر الذي يحدث بين الطفل والوالدين، إن فعل ما لا يرضيان عنه. والعقوبة هي الوسيلة لإزالة هذا التوتر، واستشعار الراحة ثانية. وبذلك تلعب مقاساة المرء العقوبة إزاء الذنب، الدور نفسه الذي يقوم به الهرب في حالة الخوف، والعدوان عند إثارة الغضب.

ليس أمرًا مثيرًا للدهش إذن أن يقول التحليل النفسي –على ضوء البحوث التي قام بها في الضمير– إن هناك صلة نفسية وثيقة بين الذنب والعقاب، وإن المذنب يشعر بحاجته إلى العقاب، حتى يزول التوتر النفسي الذي يسببه الذنب الذي يقترفه، إذا سدت هذه الحاجة. وفي ضوء هذه الصلة بين الذنب والعقاب، نستطيع أن ندرس أصل النظام الاجتماعي للعقوبة، وأساس فكرة العدالة المتصلة بها، التي يستهدف المجتمع عند تطبيقها على الأفراد، إيجاد اتزان وتعادل بين الجريمة والعقاب، وأيضا بين الفضيلة والثواب.

ويظهر لنا من العجالة السابقة أن العقاب والعدالة ليسا شيئين جديدين ابتكرهما رجال القضاء والتربية؛ لأن أصولهما موجودة في التركيب العقلي للإنسان منذ الطفولة الأولى. فبمجرد أن يبزغ الضمير نتيجة التحكم الوالدين وسيطرتهما على الطفل، تظهر لديه الحاجة

---

(1) انظر صفحة ٣٤ من هذا الكتاب.

للعقاب، التي تدفعه ذنوبه لتحقيقها بصور تتناسب مع قدر هذه الذنوب، فيتضمن هذا التعادل بينهما فكرة العدالة.

طرق التعبير عن الحاجة للعقاب:

قد يكون تحقيق الحاجة للعقاب بطرق مختلفة، منها ما يأتي:

١- مقاساة العقاب نفسه:

وتبدو هذه المقاساة أهم الطرق، وأكثرها بدائية لتخفيف الذنب على الإنسان، بل قد تعمل على إزالته ومحوه فيشعر الإنسان براحة نفسية كبرى. وقد يعمل المذنب بنفسه –دون أن يشعر– على أن يقاسى العقاب على يدي من يحق لهم العقاب، أو عن طريقه هو. فكم من مجرم يخطئ في ارتكاب جريمته، فيترك أثرًا يدل عليه، ويرشد المحققين إليه، مثل بطاقته أو عصاه أو منظاره، إلى غير ذلك. وكم من مذنب يعمل على أن يقاسي من ذنبه، بأن يزل في الطريق فيصاب برضوض، أو أن يصطدم بشجرة أو عمود مقام. وكم من طفل يدعو على أمه بالمرض أو الموت إن هي قست عليه، أو حرمته متعة لذيذة، فإذا به يعض لسانه، أو يلطم فيه. وسنرجع إلى هذا مرة أخرى في شيء من الإسهاب.

٢- وثمة طريقة أخرى لسد الحاجة للعقاب والتحرر من الذنب، وهي التعويض:

إن توقيع العقوبة على المذنب قد يخلصه من ذنبه إلى حد ما، وقد يسكن غضب الشخص الذي اقترف ذنبه ضده. ولكن هذا التسكين، إنما هو تسكين نفسي فقط، أما الأضرار المادية التي ربما تتسبب عن

المذنب، فتظل باقية؛ ولذلك تثار الرغبة في إصلاح هذه الأضرار، ولا تتحقق بعقاب المذنب ومقاساته فقط. فمثلًا إذا سرق لص ملابسك، فقد تشعر بالراحة إذا ما أوسعته ضربًا أو سلمته للشرطة، ولكن هذا العقاب لا يرد لك ملابسك، وقد يكون من الأفضل أن تطالبه برد ما سرقه منك. ولذلك نجد أن التعويض أفضل من العقاب في تخفيف غضب المعتدى عليه، وفي تخليص المذنب من ذنبه لعدة أسباب أهمها ما يأتي: أولًا: لأنه يصلح شرًا وقع. وثانيًا: لأنه يتضمن تكيفًا للسلوك تجاه الشر الذي ارتكب تكيفًا نوعيًا وكميًا. وثالثًا: لأنه يتضمن تنازلًا عن دافع الانتقام الهمجي تجاه المذنب، اللهم إلا إذا ألح في طلب العقوبة والتعويض معاً، كما يحدث في بعض الأحيان، حيث تكون العقوبة علاجًا لنتائج الجريمة من الناحية النفسية، ويكون التعويض علاجًا لها من الناحية المادية.

وقد أدت بحوث بياجيه Piaget (عالم النفس السويسري المعروف بدراساته النفسية الأطفال وعقليتهم) إلى أن التعويض بوصفه طريقة لمعالجة الذنب يأتي متأخرًا في حياة الطفل عن العقوبة المجردة. ويمكن الرجوع في ذلك إلى كتابه (النمو الخلقي للطفل) Moral Development of the child

وأثبتت بحوث علماء التحليل النفسي على أن التعويض أو الإصلاح، تنبت بذوره بشكل بدائي في الطفولة المبكرة. ولكن بالنسبة لعناصر العدوان التي تشملها الذات العليا في ذلك العهد من قوة وغلبة، يتضاءل التعويض ودوافع الإصلاح إزاءها. وتبدو العقوبة كأنها الطريقة

الوحيدة التي بها يعالج الذنب؛ ولذلك يرى علماء التحليل النفسي وجوب تشجيع الإصلاح والتعويض مع صغار الأطفال، وتنمية روح العدالة فيهم، وعدم اللجوء فقط إلى العقاب المجرد، فإذا عبث الطفل الصغير في بعض الأدوات بالغرفة، طالبناه بأن يرتبها وينظمها كما كانت، وإذا خطف شيئًا من متاع أخيه طالبناه بأن يرده إليه ثانية، وهكذا.

إن الإصلاح أو التعويض في معاملة الذنوب، قد يكون قاسيًا ومؤلمًا للمذنب، وبذلك يتضمن العقوبة أيضًا. فالتعب الذي يصيب الطفل من جراء ترتيبه الأدوات التي عبث بها، هو أيضًا بمثابة عقاب له. ورده متاع أخيه، فيه حرمان له ما صار في يده، واعتبره ملكًا له.

ويبدو الألم في التعويض على أشده، في ألوان التضحيات والقرابين التي تقدم تكفيرًا للذنوب، سواء أكانت تضحيات فردية أم جمعية، مثل تضحية الفرد بطعامه في الصوم، إذا ما مارسه تكفيرًا عن إثم، أو إطعامه بعض الفقراء والمساكين من قوته وماله، إذا ما ارتكب خطيئة الإفطار. ومثل تضحية الجماعة بفرد منهم أو بضعة أفراد كما يحدث في المجتمعات الهمجية، وكما كان يحدث من قبل في بعض المدنيات القديمة. والمثل على ذلك التضحية بفتاة كان يقذف بها في النيل كل سنة، استرضاء له، وتكفيرًا عما جناه القوم من آثام.

٣- وثمة طريقة أخرى لمعالجة الذنب، وهي الاعتراف:

والاعتراف على أشكال، منها أن يعترف الإنسان بنفسه لنفسه بما ارتكب من ذنوب وآثام، أو أن يعترف للغير بها مثل أب أو أم أو صديق

أو قسيس، أو أن يكون الاعتراف لمن أذنب في حقهم، أو أصابهم بضرر، اعتراف المجرم مجرمه للسلطات التنفيذية أو التشريعية.

وقد يكون الاعتراف غير مقصود، والمثل في ذلك مثل الزوج الخائن الذي ينادي زوجته باسم عشيقته عن غير قصد، ومثل المجرم الذي يكشف بنفسه عن جرمه، أو يترك دون أن يقصد آثارًا ودلائل تدل عليه، لم يكن من المنتظر أن يتركها غبي أو مأفون، مثل القاتل الذي كتب قصة عن جريمة قتل، وذكر فيها جريمته، وسرد وقائع وتفاصيل لم تكن معروفة لدى الشرطة، ولم يكن من السهل عليهم أن يصلوا إليها، وبذلك مكن السلطات من إثبات الجريمة عليه. ومثل المجرم الذي يرجع إلى المكان الذي ارتكب جريمته فيه، فيوجه إليه الأنظار، ويمكن المسؤولين من أن يتتبعوه حتى يكشفوا عن إجرامه، والأمثلة الواقعية على ذلك كثيرة. إن الكشف عن الجرائم الكبرى مثل السرقة والقتل التي لا يوجد لها شهود عيان، والتي ربما تكون دبرت تدبيرًا محكمًا، هذا الكشف كثيرًا ما يحدث بمساعدة المجرم نفسه بكلمة يقولها، فترفع النقاب عنه، أو سلوك يسلكه فينم عنه. وقد يعترف اعترافا صريحًا بجريمته دون أن يكون هناك مبرر ظاهري لهذا الاعتراف، الذي يعلم ولا شك أنه قد يؤدي بحياته. وهنا نواجه تناقضًا غريبًا في سلوك المجرم وتصرفاته، عندما يرتكب جريمته في تدبر وحيرة وتفكير في كل شيء تقريبًا، ثم يقول كلمة أو يترك شيئًا تجعل يد القانون تمتد إليه وتسلط عقابها عليه، إنا لا نعد هذا خطأ عن فشل في التفكير واختلالًا في الحذر؛ لأن طريقة رتكاب جريمته تدل على تفكير وحذر شديد، وإنما

نعتبر الخطأ من النوع النفسي الذي تدفعه إليه قوة خفية عنه لا يستطيع لها مقاومة، ولا تجعله يدرك مطلق هذا الخطأ الذي يقع فيه، عندما يقع فيه. هذه القوة الخفية اللا شعورية فيه التي تدفعه لأن يخون نفسه هى الحاجة إلى العقاب الناتجة عن التوتر النفسي اللا شعوري، الذي يئن تحت ثقله في داخل نفسه.

ولعل القارئ قد تتبع جرائم القتل الشنعاء التي اتهم بارتكابها من أطلقوا عليه اسم (وحش الإسكندرية) في الماضي[1]. لقد كان من الممكن أن تنصب الشرطة له الشراك بعد أول جريمة، أو بعد الجريمة الثانية، لو أنهم فكروا تفكيرًا سيكولوجيا في المجرم، وبذلك كانوا ينقذون أرواحًا خمسة ذهبت ضحية (الروتين) البوليسي. لقد ارتكبت الجريمة الأولى في الليل، وفي حديقة واسعة ذات أشجار يؤمها نوع خاص من الناس ليلًا، وارتكبت الجريمة الثانية ليلًا وفي مكان مشابه، وكذلك الجرائم الأخرى. ثم إن المجرم بعد اعتدائه على ضحيته الثانية، أتى بعد اكتشافها مباشرة إلى أحد الشرطيين، عندما كانوا ينقلون الضحية إلى المستشفي، وسأله: "هل قال القتيل شيئًا؟" لقد كان هذا السؤال كافيًا للنهوض بمراقبته حتى يمسك متلبسًا بجريمته التالية قبل أن ينجح في إتمامها. ولكن الشرطه لم تستطع أن ترى شيئًا في تماثل الأمكنة التي

---

(1) هو رجل فوق الأربعين له زوجة وأطفال، ولكنه كان مصابًا بشذوذ جنسي؛ إذ كان مغرمًا بالجنسية الذكرية، وكان في الغالب يلعب الدور السلبي فيها. وكان يصيد فرائسه من الشبان الشاذين أيضًا في الجنسية الذين يقاسون من الجنسية الذكرية المزدوجة، أي أنهم يقومون بالدورين الإيجابي والسلبي منها، وكان هذا الرجل يقتل فريسته من الشبان بعد أن يرضيا سويًا غريزتهما الجنسية معًا على شكل شاذ منحرف.

ترتكب الجرائم فيها، ولم تستطع أن تستشف شيئا من هذا السؤال الغريب. ولم تستطع أن تصل إلى المجرم إلا بعد أن اعترف أحد الضحايا، وقد شاء حظه أن تكون الرصاصة التي أطلقها المجرم عليه رصاصة غير قاتلة. بل إن المجرم كان يفعل أكثر من هذا، إذ كان يتصل بضباط الشرطة ويتناقش معهم في هذه الجرائم التي يرتكبها، ويبدي رأيه فيها. إن هذا الاهتمام الغريب من جانبه، كان يجب أن يستلفت إليه أنظار البوليس من أول الأمر، فيقوموا على الأقل بمراقبته.

أو خذوا مثلًا آخر عن جريمة قتل تاجر في متجره، حدثت في الليل، ولم تكشف إلا في وقت متأخر في صباح اليوم التالي. وقبل الكشف عنها، اشترى رجل جريدة من بائع صحف، ومر عليه بعد ذلك بقليل قبل أن تكتشف الجريمة، فسأله البائع إن كان قد قرأها، قال: "نعم، ولكن ليس فيها شيء عن القتل"، فسأله البائع "جريمة قتل أخرى؟" قال: "نعم، في الشارع الفلاني". وكان هذا الرجل هو القاتل[1].

وقد يكون الاعتراف صريحًا ومقصودًا وبروية وتفكير، مثلًا عندما يذهب المجرم من تلقاء نفسه فيعترف بجرمه لذوي الشأن، بعد أن يزيد التوتر الداخلي الناشئ عن ذنبه، وتتغلب حاجته اللا شعورية للعقاب على إرادته وعلى ذاته.

٤- وطريقة أخرى لمعالجة الذنب، هي الكبت:

وذلك بأن يكبت المذنب الشعور بذنبه، كما تكبت الرغبات

---

(١) يلاحظ من يقرأ رواية (الجريمة والعقاب) لمؤلفها دستوفسكي، أن بطل الرواية بعد أن ارتكب جريمته صار يتردد على منزل المرأة التي قتلها. وحقًا "يكاد المريب يقول خذوني".

المنافية للأخلاق والنظم السائدة. ويبدو كأن المذنب قد نسي ذنبه وأصبح لا يشعر به، ولا تستثار عنده الحاجة للعقاب المتصلة بالمذنب بسبب ذلك. ويستمرئ بعد هذا أن يرتكب الخطيئة أو الجرم مرة ومرات بقسوة ودون خجل. وهذا ظاهر في سلوك عدد من الناس، خصوصًا أولئك الذين لم تتكون ضمائرهم تكوينًا قويًا متماسكًا، ولم تكن مثلهم متسقة منسجمة متساندة. فالواحد من هؤلاء، قد يرتكب خطيئة فيؤنبه ضميره ويشعر بالذنب، ثم نتيجة البعض التفكك الموجود في الذات العليا، كما سبق أن بينا عنده الكلام عن الصراعات التي تحدث في الذات المثلى، يكبت هذا الشعور بالذنب، ويخطئ الإنسان بعد ذلك ويذنب، بل ويجرم من غير شعور بذنب أو خجل أو عار.

ولذلك نجد أن السماح بارتكاب الخطيئة في بعض الناس، شر لهم ولغيرهم ممن يلوذون بهم، وللمجتمع؛ لأن هؤلاء نتيجة لعدم تماسك قوى ضمائرهم ولتفكك مثلهم، قد يستمرون في الخطيئة ولا يرون في اقترافها شرًا أو عيبًا، فيجنون بذلك على أنفسهم وعلى غيرهم، ومن هنا نجد من الخطأ، بل من السفاهة أن يقول بعض الناس، أو مناداة بعض الفلسفات المغرضة بأن ليس من إيمان إلا بعد كفر، وليس من توبة صادقة إلا بعد خطيئة كبيرة. إننا لا نجد سندًا نفسيًا لهذه الأقوال الفارغة الشريرة، ولاعتبارها قاعدة عامة. بل إن علم النفس ليفندها ويخطئها، تلك التي قال بمثلها من قبل شخص من أقذر الناس الذين عرفهم التاريخ، وهو راسبوتين، الذي كان يدعو للفساد بهذه الأقوال لأنه كان فاسدًا منحلا. وبعض الفاسدين الآثمين، خوفا من أن ينفر المجتمع

منهم، يحاولون أن يجروا الناس إلى الضلال، حتى يصبحوا واحدًا من كل، أو على الأقل واحدًا من بعض. لأن الإنسان مهما كان، لا يطيق أن يكون واحدًا مفردة، بعيدًا عن الكل، ناشز عن المجتمع. ويستندون في ذلك إلى أن الضلال يستهوى النفس السفلى الهمجية، ويتصل بالغرائز في حالتها الوحشية، ويثير اللذات المتصلة بها، وبالرغبات المكبوتة في الذات أو النفس الواقعية.

٥- وثمة طريقة أخرى لمعالجة الذنب، هي التبرير:

وهي أن يبرر المذنب ذنبه بشكل من الأشكال. فالتاجر الذي يقترف الإثم في تجارته، فيغش الناس ويخدعهم، ويكذب عليهم يبرر إثمه بأن المهنة تتطلب ذلك، وأن التجارة شطارة، وأنه بعمله هذا لا يكسر القانون. والرجل القاسي، أبا كان أو حاكما، يبرر قسوته بأنها وسيلة لصلاح أولاده أو مجتمعه. والسارق قد يبرر سرقته بجوعه أو جوع أطفاله وهكذا.

وهذا التبرير في معالجة الذنب أسوأ من طريقة الكبت التي سبق أن شرحتها الآن؛ لأن الإنسان يستند بها إلى دعامة في اقتراف الذنب أو الخطيئة، ويمنح نفسه الحق في أن يرتكبها. ولكن المجتمع الصالح، يمكن أن يهدم بسرعة تلك الأسس الواهية، التي يركن إليها المذنب، أمام عينيه. فالتاجر إذا لقي إعراضًا من الجمهور، يبدأ يشعر بذنبه، ويلغي مبرراته، والأب القاسي أو الحاكم المستبد، يلقَ إعراضًا من ابنه أو شعبه، وربما يجابه برد فعل على شكل ثورة. والسارق يفقد عطف الناس، بل ربما يعاني عقابهم إياه، فيرجع عن إجرامه، ويفكر في طريقة اجتماعية لكسب عيشه.

ليس التبرير إلا ستارًا يغطي ما تزخر الذات به من رغبات مريضة، أو صفات رديئة، تعمل الذات العليا على كبحها وعدم السماح لها بالتحقيق. إنه وسيلة الذات في استدرار عطف الذات العليا عليها، باللجوء إلى بعض مكوناتها القريبة الصلة بها. مثل دافع التفوق دون كسر القانون في حالة التاجر، وصلاح الطفل في حالة الأب القاسي، والعطف عليه في حالة السارق الجوعان الذي يبرر جرمه مجموعه وجوع أولاده. إنه وسيلة الذات للتغرير بالذات العليا أو الضمير حتى تحقق رغباتها التي تشعر في داخل نفسها أنه لا يوافق عليها. إنها دموع التماسيح تذرفها الذات أمام الضمير القوي؛ كيما تلين قلبه وتكسب عطفه. قد يغتر الضمير بها إلى حين، ثم إذا به يكشفها، وتبدأ الذات تشعر بالذنب شعورًا فظيعًا. وإذا بها تتضاءل تحت ثقل الذنب كما يتضاءل الطفل المخطئ أمام والديه. وإذا بالعقاب يأتي على صورة ندم وحسرة واستغفار وتكفير عما جنته الذات.

٦- وثمة طريقة أخرى لمعالجة الذنب:

وهي أن يسقطه المذنب على غيره من الناس، وبذلك يتخلص منه، بل ويبدأ ينتقد هذا الغير ويلومه على ذنبه هو الذي أسقطه عليه وألصقه به. إن الحياة مليئة بهذا الصنف من الناس الذين تثقل عليهم ذنوبهم فلا يستطيعون أن يتحملوا ثقلها، فإذا بهم يقذفون بها على غيرهم، ثم يرون أنفسهم المذنبة فيهم، ثم يلومونهم عليها وهم بذلك يلومون أنفسهم حقًا بشكل لا شعوري. وكأنهم بهذه العملية كلها يتخلصون من ذنوبهم.

وقد يصل الحال بالفرد من هؤلاء إلى اتهام الغير اتهامات باطلة،

والشكوى منهم إلى أولي الأمر باعتدائهم عليه اعتداءً منكرًا. وكم تمتلئ ملفات القضاء بحالات من هذا النوع، وكم من أبرياء قاسوا، وربما ذهبوا ضحية إسقاط الغير بذنبهم أو جرمهم عليهم.

ويظهر الإسقاط بشكل متطرف في ذلك المرض العقل المسمى (بارانيا) Paranea، إذ يكون لدى المريض ما يسمى بأوهام الاتهام Delusions of Persecutions فيشعر أن هناك أشخاصًا معينين يتآمرون ضده، ويقفون في طريقه، ويتجسسون عليه، ويتكلمون ببذاءة عن أفعاله.

ويمكن تفسير ذلك بأن دوافع الذنب والعدوان الموجودة لدى المريض، تسقط على أشخاص آخرين. وعلى هذا الشكل يستشعرهم ويراهم، ويوجه إليهم مختلف الاتهامات، التي هو في الحقيقة محل بواعثها، ولكنه لم يستطع أن يرزح تحت عبئها، فأسقطها على غيره، وأصبحوا بذلك في نظره يضمرون بواعث العدوان هذه ضده، ويزخرون بدوافعها التي يشعر أنهم يعملون على تحقيقها فيه، وليت الأمر ينتهي إلى ذلك، بل إنه قد يطالب بمعاقبتهم على ذلك، أو (وهو الغالب) قد ينتقم منهم، بالعدوان عليهم بل ربما بمحاولة قتلهم.

فالإسقاط إذن لا يمنع من العقاب، بل إنه يحول الذنب والعقاب معًا إلى شخص آخر، فيكون بذلك ضحية لذنوب غيره وجرائمهم. إنه طريقة سهلة، ولكنها خطيرة، يتخلص المذنب بها من شعوره بالذنب، دون أن يتحمل في ذلك عقابًا. ولكن ليت الأمر يقف عند هذا الحد،

بل إنه يوقع غيره فى مشكلات هو براء منها، ويصوره للناس مذنبًا ومجرمًا يستحق الجزاء. وكأنه بذلك يرضي دوافعه العدوانية الأولية، ويسترضي بذلك ضميره وما يضمه من نزعات سادية قاسية.

وقد يحدث الإسقاط هذا من قبل جماعة من الناس على جماعة أخرى، فيؤدي إلى حرب بينهما. وأقرب مثل تاريخي لذلك حرب إيطاليا ضد الحبشة، وقد كانت الشرارة الأولى للحرب العالمية الثانية التي اكتوى العالم بنيرانها، ولا يزال يعب من جحيمها ومرارتها؛ فلقد أسقط الشعب الإيطالي على الأحباش دوافع العدوان التي كانت تتأجج في صدره ضد الأحباش[1]، وصورهم العالم معتدين آثمين يستحقون العقاب. وبذلك نشبت الحرب بينهم، وكثير من حروب الاستعمار، شبت نيرانها عن طريق عملية الإسقاط هذه. إذ يتهم المستعمر القوي، الشعب أو الحكومة الممثلة للشعب الذي يريد أن يبتلعه، بأنه يقوم باستعدادات هائلة للعدوان. وما هذا العدوان الذي يتهم المستعمر الشعب الضعيف به، إلا العدوان الذي بدت دوافعه قوية في نفسه، ثم أسقطها على الضعيف. إنها قصة الذئب والحمل تمامًا، الذئب مليء بروحِ الاعتداء الذي يسقطه على الحمل، فهو يعكر صفو الماء الذي يستقي منه، ثم هو من سلالة غنم اعتدوا على أجداده من قبل!

ونجد الإسقاط أيضًا في القبائل المتوحشة، إذا هاج بينهم بركان، أو جرفهم سيل مغرق، أو انتشر بينهم وباء مهلك، إنهم يستشعرون من هذا

---

(1) ساعد على ذلك إثارة موسوليني في نفوس الطليان الرغبة في الانتقام من الأحباش الذين هزموهم في موقعة عدوى المشهورة سنة ١٨٩٦.

غضب الآلهة عليهم لذنوب تزخر بها نفوسهم، فإذا بالقبيلة تسقط ذنوبها هذه على قبيلة أخرى، فتصبح بذلك مجرمة تستحق العقاب والتقتيل. أو قد تسقطها على شخص أو بضعة أشخاص منها، يصبحون في نظر القبيلة مجرمين مملوئين بأرواح شريرة، فتعذبهم وتقدمهم قربانًا للآلهة الساخطين.

ففي أونيتشا مثلًا Onitsha على نهر النيجر في غرب أفريقيا، جرت عادة القوم أن يقدموا كل سنة شخصين قربانًا للآلهة حتى يرفع عنهم وزر آثامهم وخطاياهم. ويشتري القوم الشخصين بأموال تجبى على صورة تبرعات، فكل فرد ارتكب في بحر السنة خطيئة مثل سرقة أو قتل أو زنا، يدفع حوالي الدينارين. وبهذا المال الذي يجمع من الآثمين المجرمين المذنبين، يشترون شخصين من المرضى، ويستأجران رجلًا من جهة مجاورة لكي يقتلهما. ويحكي قسيس يدعى Taylor أنه شهد في ٢٧ فبراير سنة ١٨٥٨ قتل إحدى هاتين الضحيتين، وكانت فتاة تبلغ من العمر عشرين سنة. جرها القوم وهي على قيد الحياة، ووجهها على الأرض مسافة ميلين من منزل الملك حتى النهر، بكل قسوة وفظاعة، وكأنهم يجرون فيها آثامهم وذنوبهم، صائحين: "الشر.. الشر!"

إن إسقاط الإنسان ذنوبه على الغير يحدث في كل وقت، وبين الأعداء والأصدقاء على السواء. إنه نتاج الخطيئة الأولى للإنسان الأول، لقد ارتكب آدم وحواء إثم المعصية البشرية الأولى معًا[1] ثم أسقط كل

---

(1) الدليل السماوي على هذا هو الآية الكريمة التي تقول "فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ".

ذنبه على الآخر، وعده مسؤولًا عن الكارثة التي حلت به. وربما كان الوازع اللا شعوري عند الرجل للإسقاط أقوى من تبرير المرأة؛ لأنه خلق قبلها، وكأن ظهورها في حياته كان بمثابة نذير شؤم له، وسببًا لطرده من النعيم. وقد دفعها إلى إسقاطها الذنب عليه، أيضًا بشكل لا شعوري. إنه انغمس في الخطيئة الأولى أكثر منها، وكان شرهًا في أكله التفاح المحرم، لدرجة أن واحدة منها وقفت في حلقه، فأصبحت بذلك وصمة أبدية له، ملتصقة به وبأحفاده من الرجال على مر العصور، تلك هي تفاحة آدم. ويظهر امتداد الخطيئة الأولى للجنسين، وإسقاط كل منهما خطيئته على الآخر في المثل المشهورة "فتش عن المرأة"، كلما حدثت جريمة أو خطيئة وشعور المرأة الدفين بأن الرجال ظالمين وخونة لا يؤتمنون.

وفي كثير من الأحايين نجد أن انتشار الوشايات والفضائح يقوم على أساس إسقاط مخترعيها وناشريها ذنوبهم وآثامهم على الأبرياء، وخصوصًا إذا كانوا يشعرون بشيء من الكراهية لهؤلاء. إن أولئك المحملة نفوسهم بالذنوب، لا يكتفون بإلصاقها بالغير، بل يتلذذون بما يوقع على هؤلاء من عقوبات، أو ما يلاقونه من مقاساة، وكأن مشاعر العدوان التي تزخر بها ضمائرهم تجد الإرضاء والتحقيق في مثل تلك العقوبات والمقاساة.

ولذلك يجب أن يقف المرء في كثير من الحذر أمام الذين يكثرون من اتهام الغير، وينتقدون تصرفاتهم، ويرمونهم بالنقائص والخطايا، لعل هؤلاء هم المذنبون الآثمون، ولعل الغير أبرياء مطهرون مما ينعتون به.

بل قد يصل حد إسقاط الذنب إلى أفظع من هذا، فيعاقب

الشخص نفسه، أو بالأحرى يعاقب الضمير الذات، بعد إسقاط الذنب أو الجرم على الغير، حتى يثبت فعلًا أن الغير مجرمون. والمثل في ذلك مثل الشخص الذي يقصد أن يؤلم نفسه، فيضرب بالحائط رأسه، أو يحدث جرحًا في جسمه، ويتهم الغير بأنه هو الذي اعتدى عليه. نجد في هذه الحالة أولًا: أن الشعور بالذنب الذي تزخر به الذات، أسقط على شخص آخر، فأصبح هو المذنب الذي يستحق العقاب، وثانيًا: لكي يبرر المرء العقوبة التي يجب أن يقاسيها غيره يعاقب نفسه، وثالثًا: تعمل عقوبة النفس أو الذات هذه على تخليص الفرد من الشعور بالذنب كلية، ولو إلى حين.

مركب بوليكراتيس The Polycrates Complex

نلخص كل ما سبق في أننا في أغلب الأحايين نشعر ولو شعورًا ضئيلًا بأننا لا نستطيع أن نصل في حياتنا إلى مستوى الذات العليا، أي أن ذاتنا قاصرة ناقصة بالنسبة للضمير، وأنها لا تسلك في كل حين السلوك الذي يرضيه؛ ولذلك تشعر بالذنب، ومن ثم بالحاجة للعقاب. ومعنى ذلك أن كلًا منا مذنب تعس إلى حد ما. وأن كلًا منا بسبب شعوره بالذنب أحيانًا أو غالبًا، ضئيلاً كان الذنب أو عظيمًا، يبحث وراء الألم، كما يبحث وراء اللذة والسرور. إذ عن طريق ألم العقاب يمكن أن يتخلص من عبء الذنب الذي يحدث توترًا مضنيًا في داخل نفسه. فإذا لم يخسر الإنسان في حياته، وكان كل شيء يسير سيرًا مرضيًا، وكأن حظًا كبيرًا يلازمه في جميع خطواته وأعماله وتصرفاته ومشروعاته، يبدأ الإنسان يستشعر شيئًا من القلق وعدم الارتياح؛ وذلك لأن حاجته

للعقاب والألم لم تتحقق. وكأن لدى الإنسان في أعماق نفسه خوفًا لا شعوريًا من النجاح المطرد، خوفًا من التعاظم المستمر، خوفًا من السعادة المتواصلة. وكأن هذا كله نذير خفي بالشر، وعلامة على حلول السقوط وحدوث الانهيار وتبدل السعادة شقاءًا.

ألسنا نقول عندما نضحك كثيرًا "اللهم اجعله خيرًا"؟ أليس معنى هذا أن في أعماقنا خوفًا لا شعوريًا من أن السعادة المسترسلة قد يعقبها ألم ومقاساة؟ ثم عندما يقول الغربي ذو الحظ الحسن "أمسك الخشب" Touch Wood لشخص يعدد له النعم التي تغدق عليه، ألا يعني هذا خوفًا داخليًا من أن تعقب هذه النعم نقمة؟

إننا لنجد أثر هذا الخوف والقلق طوال حياة البشرية، وفي كل عهود الإنسانية، حتى في تلك العهود التي كان أسلوب حياة الناس فيها حرًا طليقًا بهيميًا يكاد لا يشعر الفرد بذنب يذكر مثل عهد الإغريق القدماء. وقد سموا هذا الغلو في النجاح Hubris، ومعناه الحرفي في اللغة الإغريقية، شدة أو عنف فاجر، ناشئ من عتو في القوة والتباهي بها. واعتقدوا أن الغلو في النجاح والقوة يثير غضب الآلهة أو على الأخص إلهة الانتقام Nemesis؛ إذ كأن الإنسان بنجاحه المتواصل وبمباهاته بقوته يتحدى الآلهة، ويحاول أن يرتفع بنفسه إلى مصافهم، ولذلك يوقعون عليه العقاب الشديد ليوقفوه عند حده، ويلزموه دائرته الإنسانية الضعيفة بالنسبة لهم.

و إن الشعور بالـ Hubris ومقاساة الإنسان منه، امتداد أيضًا لعهد

الطفولة، الذي فيه يستند الطفل إلى والديه ويتخذ مثله منهما، ويتكون نواة ضميره عن طريقهما. فالطفل إن تحدى والديه وقواهما، وعظمتهما بالنسبة له، وحاول أن يستقل عنهما في حياته، ويقف عن الاستناد إليهما، لشعوره بأنه قوى مثلهما، قاسى بسبب ذلك كثيرًا. وعلى هذا النمط يعاقب الضمير الذات، إن هي حاولت أن تتحداه، وتستشعر في نفسها عظمة تتباهى بها، وتحاول أن تتخلص منه بسببها، وكأن هذا التباهي ذنب عظيم لا بد له من عقاب أو كفارة. وعلى هذا النمط أيضًا يخشى الإنسان أن يقاسي شرًا إن هو تحدى الله. الذي يشعر به أكبر من والديه، وأكبر من أية قوة أخرى في الوجود، والذي يحس في قرارة نفسه أنه قادر على كل شيء، وأنه السند الأكبر للإنسان في الحياة. فإن تعاظم الإنسان وتباهى بنجاح متواصل، وتفاخر بقوة فائقة، فإنه يبدأ يشعر بالقلق والخوف أن يلقى جزاء ذلك، عقابًا على ذنبه الذي يستشعره من ذلك النجاح المتواصل، إذ كأنه بذلك يتحدى الله، ويأنس في نفسه القدرة على أن يسير في دروب الحياة مستقلًا عنه، مستغنيًا عن معونته، بل ومنافسًا له في عظمته.

ولذلك نجد في الأديان المختلفة ما يشعر الإنسان على الدوام بأنه ضعيف أمام الله، وأن مشيئته دون مشيئة هذا السند العظم[1].

---

(1) يتبين لنا من هذا كيف أنه من السهل أن نثبت وجود الله أو ندلل بضرورة شعور المرء بوجود خالق عظيم تدليلًا سيكولوجيًا. ويمكن أن نقول أن أغلب الذين ينكرون الله يشعرون في بعض الأحيان بخوف وقلق عام لا يدرون مصدره، خصوصًا إذا حلت بهم نكبة، وكأن لديهم شعورًا دفينًا بوجود خالق عظيم، وكأن النكبة عقاب لهم على تنكرهم له وإنكارهم إياه.

ففي المسيحية نجد مثلًا في الإصحاح السادس من إنجيل متى: "أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض، أعطنا خبزنا كفاف يومنا".

وفي الإسلام نجد في القرآن آيات كثيرة بهذا المعنى، مثل: "وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ"، ومثل: "وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ".

ويتمثل التجبر في القوة عند الإنسان وما يلقاه من عقاب وألم بسبب ذلك، في المثل الذي ضربه القرآن في سورة الكهف: "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا".[1]

([1]) يعني هذا المثل أن رجلا آتاه الله من نعيم الدنيا الشيء الكثير، كما هو مصور في وصف جنتيه، ثم ظلم نفسه عندما ظن أن نعيمها وعزها باقٍ لن يبيد؛ إذ كأنه بذلك قد صور نفسه إلهًا قادرًا على الاحتفاظ بهذا النعيم، وكأنه بذلك ارتكب خطيئة الإشراك، ولقد نال عقابه على ذلك فخربت جنته وزال عزه ونعيمه. ولو أنه اعترف بضعفه أمام الله، ولم يظلم نفسه فيراها قديرة عليمة تكاد تصل إلى مستوى الله في قدرتها وعظمتها، ولو أنه ذكر أن نعيمه هذا هو ما وراء ما شاءه الله، وأن عظمته وقوته إنما أتيا من عند الله لاستمر نعيمه ولم تهن قوته.

لقد عذب اليهود المسيح ، لأنهم اعتقدوا أن لديه Hubris أو جبروتًا يتحدى به الله، كما نستبين ذلك من محاكمته الموصوفة في إنجيل متى الإصحاح السادس والعشرون:

"فأجاب رئيس الكهنة وقال: أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟ قال له يسوع: أنت قلت، وأيضًا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوة، وآتيًا على سحاب السماء. فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلًا: قد جدّف، ما حاجتنا بعد إلى شهود، ها قد سمعتم تجديفه ماذا ترون؟ فأجابوا وقالوا: إنه مستوجب الموت".

بل لقد أكد القرآن في كثير من آياته على أن محمدًا بشر وعبد، وأن بينه وبين الخالق فرقًا كبيرًا، وأن قواه محدودًا جدًا بالنسبة للخالق، حتى لتجد لومًا على درجات مختلفة موجهًا إليه من الله.

مثلًا "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ"، و"إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ"، "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِينْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ"، ونجد اللوم في: "عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى".

ثم "وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ"، ثم أيضًا: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا *فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا"، ثم: "وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ

خَلِيلًا * وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا".

ولقد سمى التحليل النفسي هذا الخوف المتأصل في أعماق الإنسان من غرور النجاح المتواصل، أو غرور الجبروت الواسع، والعقاب المتصل به باسم مركب بوليكراتيس Polycrates Complex.

وبوليكراتيس، اسم ملك ساموس في بلاد الإغريق حكم من ٥٣٥–٥١٥ ق.م. ولاقى نجاحًا متصلًا في غزواته ومشروعاته، وتحالف مع ملك مصر أحمس الثاني ضد قمبيز ملك الفرس. وقد أثار نجاحه المتواصل الخوف لديه من أن تنتقم الآلهة منه، ولتجنب هذا الانتقام Nemesism، حاول استرضاء الآلهة بأن قدم خاتمه الثمين قربانًا وقذف به في البحر. وابتلع الخاتم سمكة كبيرة غريبة صادها صياد، وباعها للملك. وقدمت السمكة طعامًا على مائدة الملك في حفل كان به فرعون مصر. فلما فتحها وجد لدهشته ودهشة الجميع خاتمه بها، ففزع وفزع الحاضرون، إذ اعتبروا ذلك دليلًا على أن الآلهة لم تقبل القربان، وعلى أنهم مصممون على الانتقام منه. وقد هرول فرعون مصر إلى بلاده، وترك الملك المحكوم عليه إلى قضائه المحتوم المشؤوم، وفعلًا كانت نهاية الملك أن صلب على يد الفرس في سنة ٥١٥ ق.م.

ومن مظاهر مركب بوليكراتيس أن يشمل الإنسان بالنجاح المتواصل به، ويغتر ويركب رأسه، وقد يشعر في أعماق نفسه بشيء من التوتر، وخوف لا شعوري من مصيبة فادحة لاحقة، ولكنه يتمادى في التفاخر

والغرور، حتى يقع ويلقى جزاء غروره، أو يوقع أهله وقومه في مصائب وفوضى فظيعة. ونجد التاريخ مليئًا بأمثال ذلك، وأظهرهم يوليوس قيصر ونابليون وهتلر.

إن كل فرد منا لديه هذا المركب إلى حد ما، ويظهر بشكل واضح شاذ في أربعة أصناف من الناس:

١- أولئك الذين يرضون حاجتهم للعقاب على شكل مصيبة تحل بهم، أو معاملة قاسية يعاملون بها من محيطهم المادي أو الاجتماعي، دون أن يكونوا قد ارتكبوا ذنبًا أو جرمًا يستحق ذلك، إلا تبعًا لمستوياتهم العقلية، وكلما أزيلت صعوبة من طريقهم، أو رفعت مصيبة عنهم، بحثوا عن بديل لها، فإذا لم يصادفوا مصاعب، ولم تحل بهم مصائب، أصبحوا عصابيين.

إن أغلب العصاب أو المرض النفسي يحدث نتيجة لصراع عقلي بين شهوات الذات السفلى، التي لا يمكن أن يوافق الضمير على أن تحققها الذات، وشهوات الذات نفسها ورغباتها المنافية للمثل الموجودة في الضمير، وبين الضمير نفسه، فيحدث العصاب كأنه عقاب من الضمير يوقع على الذات. وقد يكون العصاب على أشكال مختلفة، وقد يتولد عنه متاعب بل وأمراض جسمية.

أما في الحالة التي نحن بصددها، فإن العقاب بدلًا من أن يأتي من الضمير، يوقع من قبل العالم الخارجي على شكل صعوبات خارجية مثل فقر، أو اشتغال بمهنة متعبة غير مربحة، أو مرض أو وقوع في زواج غير

موفق، فإذا امتنعت هذه الصعوبات أو زالت، لجأ الضمير نفسه إلى أن يقف موقف المعاقب بأن يزيد من قوة كبته بقسوة لتلك الرغبات والشهوات المنافية له، فيؤدى ذلك إلى أمراض العصاب النفسي.

٢- إذا كانت المصاعب الخارجية ترضي الحاجة للعقاب عند الفرد، فليس من الغريب إذن أن نجد بعض أشخاص يخلقون بأنفسهم هذه المصاعب بشكل لا شعوري.

فهم يوقعون أنفسهم في متاعب، كان من الممكن لهم أن يتجنبوها، ولكن قوة لا شعورية تدفعهم إلى التورط فيها. فهم يقبلون على صفقة خاسرة، مع أنهم يدركون بتفكيرهم أنها خاسرة ويعملون في مهن لا توافق ميولهم، وهم يعلمون ذلك، ويختارون لأنفسهم حياة زوجية لا تتفق مع مبادئهم وتقاليدهم، وهم متيقنون من هذا ومن أنها ستجلب لهم الشقاء، ويعرضون أنفسهم لأنواع من الطعام والشراب الذي يضر بصحتهم، وهم على علم بذلك.. وهكذا.

وإذا سارت الأمور في حياتهم سيرًا موفقًا، فإنهم سرعان ما يخلقون متاعب ومشكلات فظيعة. ففي منازلهم يتسببون في شجار ومنازعات بينهم وبين ذويهم لأتفه الأسباب، فإن لم يجدوا سببًا حاضرًا، رجعوا إلى الماضي لينبشوا منه ويثيروا عن طريقه أسبابًا المنازعات فضت من قديم، وطويت صفحاتها من قبح.. وهكذا.

وهؤلاء للأسف، لا يقتصر أمر متاعهم على أنفسهم، بل إنهم يكونون سببًا لشقاء الأبرياء من أزواج أو أصدقاء أو مرؤوسين.

٣- وقد تحقق الحاجة للعقاب على الشكل المعروف بالهستريا التحولية أو القلق الهستيري Anxiety أو Conversion Hysteria Hysteria؛ إذ يشعر الفرد بمخاوف وهموم عامة لا يدرك مصدرها ومنتهاها، وتملؤه كابة فظيعة لايشق منها إلا إذا أصيب بمرض جسمي. فالكآبة في هذه الحالة عرض للحاجة إلى العقاب، لا تزول إلا إذا نزل العقاب، وتألم الإنسان. فإذا زال الألم رجعت الكآبة والهموم والمخاوف العامة مرة أخرى.. وهكذا.

والمثل في ذلك مثل رجل موهوب كان يقاسي كآبة فظيعة، لا تزول إلا بعد عطلته السنوية، ولأمد محدود؛ وذلك لأنه في كل عطلة كان يجري جراحة في ناحية من نواحي جسمه، في ساقه أو أذنه أو أنفه أو بطنه. وكان لا يقبل إلا أن يخدر تخديرًا موضعيًا فقط، ويرقب باهتمام إجراء الجراحة فيه[١].

نجد هنا أن المرض العقلي يزول مؤقتًا بالجراحة أو بالألم الجسمي، وكأن الجراحة عقاب يخلصه من شعور دفين بالذنب يسبب له تلك الكآبة والمخاوف العامة، فإذا ما زال الألم الجسمي، عاودته الكآبة ثانية.

وقد استغل تبادل المرض العقلي والجسمي في العلاج الحديث لبعض الأمراض العقلية والعصبية، والمثل في ذلك استعمال الصدمات الكهربية والأنسولين والكارديازول والتريازول ،Cardiazol Triazol في علاج المرض العقلي المعروف بالشيزوفرينيا Schizophrenia. ولكن

---

(١) من كتاب Man, Morals & Society. by J. C. Fligel.

هذا العلاج إن أفاد، فهو علاج وقتي فقط؛ لأن مثل هذه الأمراض يحتاج شفاؤها إلى تحليل نفسي، يعالج به الصراع العقل المسبب لها، لا إلى علاج العرض وترك الداء الأصيل الدفين كما هو.

٤- وقد تتحقق الحاجة للعقاب على شكل آخر، يختلف عما ذكرناه في النقطة السابقة، فهنا تمتزج عناصر العقاب مع تحقيق الأعراض العصابية، ويكون الامتزاج قويًا في حالة الهستيريا. ويكون العرض العصابي بمثابة إرضاء الحاجة للعقاب. وفي الوقت نفسه بمثابة حل موفق بين الرغبات المكبوتة والقوى الكابتة في الضمير، وأبسط مثل لذلك احمرار الوجه؛ فهو عقاب لأنه علامة شعور بخجل أو خزي، وهو أيضًا يرضي الميل المكبوت لعرض الجسم وإظهاره (exhibitionism)؛ إذ يستلفت احمرار الوجه نظر الناس للشخص، فبعض الناس منذ طفولتهم يمتصون فيما يمتصون من والدهم النواهي ضد تعريض الجسم للأنظار، وخصوصًا بعض أجزائه. وهذه النواهي تكون شديدة لدى البنات أكثر من البنين. فالميل لتعريض الجسم للأنظار، وعدم مضايقة الجسم بما يكدس عليه من ملابس، ميل طفلي يكبته الوالدان، بدليل السرور الذي يبدو على الطفل الصغير وهو يذهب ويجيء عريانًا، وتألمه من اللباس الذي يوضع عليه ومحاولته خلعه ويصبح النهي عن هذا الميل جزءًا من الضمير يحرمه على اللذات. فإذا نظر إنسان غريب لشخص قد كبت هذا الميل فيه كبتًا شديدًا، احمر الوجه أو اضطرب الإنسان في حركاته، وهذا نوع من عقاب الضمير للذات واحتجاجه عليها؛ لكونها تحاول تحقيق ذلك الميل المكبوت. وفي الوقت نفسه، فإن احمرار الوجه

أو اضطراب الحركات يستلفت الأنظار إلى وجه الإنسان أو جسمه بوجه عام، وبذلك يجد الميل المكبوت نوعًا من التحقيق على هذه الصورة.

والمثل في ذلك أيضًا خوف السقوط أو الوقوع الذي يمكن أن نعده تهديدًا بعقاب على شكل مصيبة جسمية تحدث للإنسان. وفي الوقت نفسه فهو نوع من إرضاء النزعات المكبوتة لدى الشخص في أن يذنب ضد الضمير ويجرم. فالخوف من السقوط أو ما يشابه، مثل الدوار الذي يصيب بعض الناس كثيرًا دون أن يكون هناك سبب عضوي له، قد يكون خوفًا من السقوط الأدبي أو الاجتماعي. مثل الرجل الذي كان دائمًا يمتلئ خوفًا من السقوط عندما يسير في الشوارع. ويصل هذا الخوف أشده، إذا سار في شارع مليء بالملاهي، ويقل إذا سار مع زوجته، أو مع أصدقاء محترمين ولم يكن يدرك طبعًا أصل خوفه هذا. وقد تبين أنه خوف من السقوط في الرذائل وارتكاب الآثام، أو من تحقيق الدوافع المنافية للأخلاق المكبوتة عنده كبتًا شديدًا[١].

من كل ما سبق نتبين أولًا: أن كلًا منا لا يستطيع أن يصل إلى مستوى مثله العليا أو ذاته المثلى، وأنه بذلك لا يستطيع أن يرضي ضميره في كل تصرفاته وسلوكه وأفكاره. فيشعر بسبب ذلك بالسخط والذنب، وأن هذا الذنب يسبب حالة من التوتر في داخل نفسه لا يزيلها إلا العقاب الذي يرضي الضمير، ويجعله مرة أخرى في توافق مع الذات. أي أن كل إنسان منا لديه حاجة للعقاب.

---

(١) من كتاب Man, Morals & Society. by J. C. Fligel.

وثانيًا: أن إرضاء هذه الحاجة للعقاب يكون على أشكال مختلفة، منها العقاب والتألم مباشرة، أو التعويض عن الذنب والزلة، أو الاعتراف مباشرة بالذنب، أو الاعتراف بطريق غير مباشر به بأن يعمل الإنسان دون شعور منه على أن يدل على ذنبه وإجرامه بدلالة من الدلالات، ومنها كبت الشعور بالذنب مرة ومرات، حتى يصبح ارتكاب الذنب بعد ذلك أمرًا عاديًا لا يشعر المجرم بجرمه، ومنها تبرير الذنب بشتى المبررات، وكأن الإنسان بذلك يتوسل إلى ضميره، ويستعطفه حتى يرفع غضبه عنه، ومنها إسقاط الذنب أو الجرم على ضحية من الضحايا قد تلقى جزاء ذنوب الغير، وتقاسي عقاب جرائمهم، مقابل أن يتخلص الإنسان المذنب مما اقترف.

ومن هذا يتضح لنا أن الإنسان الكامل، الذي تصل ذاته إلى مستوى ذاته المثلى في الحياة، والذي يستطيع أن يسلك دائمًا السلوك الذي يرضي ضمير إنسان لا وجود له.

حقًا إن الإنسان محمل بالذنوب، وإنه لكي يكفر عن ذنوبه ويتخلص منها، كثيرًا ما يتلبس العقاب، ويوقع نفسه في متاعب كثيرة، ويورد نفسه موارد المقاساة، وقد يلصق بالأبرياء ذنوبه، فيجر عليهم الويلات والعذاب، ثم ينام هادئًا ملء جفونه، وكأنه لم يفعل شيئًا.

إن الآثام التي يقترفها الإنسان لتختلف كمًا ونوعًا، تختلف في كثرتها وقلتها، وتتباين من مساوئ بسيطة إلى ذنوب كبيرة، إلى جرائم فظيعة مروعة، وهذه الدرجات من الإثم والجريمة تتوقف إلى حد كبير على نوع نواة الضمير الذي تكون في الإنسان كما وضحنا من قبل، ثم على الظروف

المختلفة التي تحيط به، وعلى من يختلط بهم، وعلى الأنظمة التي تتحكم في مجتمعه، وعلى ذوي السلطان والنفوذ في حياته، وعلى نوع الحياة التي يضطر لأن يعيشها، وعلى غير ذلك من عوامل أخرى يتمثلها المرء، فإما أن تسند القوى التي تكون منها الضمير، أو تعارضها وتعمل على إضعافها وانحلالها، كما سيأتي الكلام على ذلك في الباب الأخير من الكتاب.

الجريمة والعقاب:

بقيت كلمة بسيطة عن معاملة المذنب أو المجرم من الأفراد والهيئات، كيف تكون؟ هل يعاقب؟ وكيف يكون العقاب؟

وقبل كل شيء يجب أن ننظر للمذنب أو المجرم من ناحيتين: مذنبًا نحو أفراد، ومذنبًا نحو المجتمع. والمثل في ذلك الرجل الذي يعتدي على آخر بسب أو إهانة أو ضرب، إنه يعد معتديًا على فرد، ومعتديًا على نظام المجتمع الذي يؤمن حياة الأفراد، ويمنع الفوضى من أن تنتشر بينهم، والذي من أجل ذلك يشرع الأنظمة والقوانين، التي يجب أن يسير الناس في هداها، وينصب حراسًا وحكامًا يعملون على أن يحترمها الناس، ويعاقبون من يخدشها أو يكسرها.

فالمذنب في كلتا الحالتين يشعر بذنبه، إن كان سويا، وتستثار لديه الحاجة للعقاب. وفي بعض الحالات نجد أنه إذا لم يعاقب المذنب أو المجرم، فترضي فيه تلك الحاجة، ويتخلص بذلك من ثقل ذنبه عليه. فإن الشعور بالذنب الذي يظل كامنًا في نفسه، على شكل توتر وضيق داخلي، قد يجره إلى الإثم أو الجريمة مرة ثانية، حتى يُكتشف أو

يعترف، ويُعاقب على الجريمتين. ولذلك لا نعجب حين نجد مجرمًا يعترف دون مبرر ظاهر بجرائم سابقة، ويطلب من القضاء أن يضمها لحسابه الإجرامي. وإذا لم يعاقب في المرة الثانية، فقد يستمر في إجرامه، ويقل بسبب ذلك الشعور بالذنب؛ نتيجة لتغلب الغرائز الهمجية في الذات السفلى –تشد أزرها الرغبات المكبوتة في الذات، المنافية للأخلاق والمجتمع– على ضمير الإنسان. ولقد سئل بعض المجرمين العتيدين في الإجرام. عن سبب استمرارهم فيه، فقالوا إنه يرجع إلى أنهم لم يعاقبوا على أول جرم اقترفوه. والمذنبون والمجرمون في هذه الحالات يكونون غالبًا أصحاب ضمائر ضعيفة غير متماسكة، أو يكونون مكبوتين كبتًا فظيعًا.

وفي بعض الحالات الأخرى. قد يزيد إهمال المذنب أو المجرم، من شعوره بالذنب، فيقاسي ألمًا داخليًا فظيعًا، وخزيًا وعارًا مستمرًا، أمض في ألمه وأوجع في وخزه من العقاب الذي يوقع عليه من الخارج. ويضطر لأن يعاقب ذاته بإذلالها بالتوسل لمن أذنب ضده أن يشمله بالمغفرة. وفي مثل هذه الحالات يكون المذنب أو المجرم ذا ضمير قوي متماسك في مثله في الغالب، وتكون رغباته المكبوتة في ذاته قليلة؛ لأن طاقات الغرائز الهمجية قد حولت من أول الحياة إلى نواحٍ اجتماعية صالحة مفيدة.

وقد دعت هذه الحالات الأخيرة بعض الفلاسفة وبعض علماء الاجتماع إلى المناداة بإلغاء العقوبات، فمثلًا نجد برناردشو يقول:

"إن الحياة لن تزول وتنتهي إذا لم تقابل الجريمة بالعقاب، كما أنها لن تزول لأننا لا نواجه المرض بالعقوبة. إن العقاب خطأ وخطيئة".

إن في قول برناردشو ومن يرى رأيه مغالطة كبيرة، فهم يكادون يعترفون بأن الجريمة مرض، وهي في الواقع مرض نفسي، والأمراض النفسية لا يكون ضررها مقصورًا على من ابتلي بها فقط ولكنها تجلب الشقاء للغير أيضًا. إنها إذن تشبه الأمراض المعدية، والمجتمع لا يسمح بالمبتلين بها أن يتنقلوا في أوساطة فينشروا العدوى والعلل والسقم بينهم، إنه يجمعهم في معزل خاص، ويضع عليهم حراسًا شدادًا يمنعونهم من الخروج منه حتى يعالجهم، ويطمئن بذلك على سلامة الأفراد الذين سوف يخالطونهم.

وكذلك الأمر في الجريمة ومقترفها، فقد وجد المجتمع من قديم، أن يمنع شر المجرم عن أفراده؛ لذلك سن له قانون العقوبات، وجعله بمثابة علاج للجريمة، لا بد أن يتجرع المجرم منه ما يمكن أن يسد حاجته لعقاب تبعًا لجرمه، عل ذلك يشفيه، ويرجعه إلى حظيرة المجتمع، سليمًا معافى، خالصًا من دوافعه الإجرامية.

ثم إن المجتمع أراد من العقوبة شيئًا آخر، وهو أن يجعل من المجرم أمثولة لغيره ممن قد يحملون ضمائر خائرة، فيعملون خوفًا من غضب المجتمع وسخطه عليهم وعقابه لهم، على أن يشدوا أزر تلك الضمائر، وينفخوا في بصيص النور المشتعل بها، كما يزيد سناؤه، فيبدد بذلك ظلمات الرغبات الهمجية المتأججة في النفس، المستعدة

للوثوب، وإعمال مخالبها في النظم الاجتماعية والأخلاقية التي يعيش الناس –ويجب أن يعيشوا– في ظلها، حتى يكونوا آمنين في نفوسهم، مطمئنين أحدهم للآخر.

قد يكون الأفضل طبعًا، أن نعالج المجرم علاجًا نفسيًا، وهو في معزله أو في سجنه، حتى نضمن شفاءه من دوافعه العدوانية الأثيمة، ولكن أنى لنا بالمحللين النفسيين الذين يمكنهم أن يعالجوا المجرمين والآثمين وما أكثرهم؟ وأنى لنا بالوقت الذي يستلزمه العلاج وهو طويل مضنٍ؟ إن أكبر ما نستطيع القيام به هو:

١– الوقاية من عوامل الإجرام، وذلك بالاهتمام بتربية النشء في سنواته الأولى، عندما يكون في أحضان والديه، وخصوصًا أمه.

٢– معالجة المشكلات النفسية عند ملاحظتنا إياها في الأطفال أو الأحداث الجامحين، إذ من السهل أن يقوم بهذا العلاج، بينما لو أهملنا هذه المشكلات، فقد تتفاقم مع نمو الحدث وتؤدي به إلى الإجرام.

من أجل ذلك، كان الاهتمام بمحاكم الأحداث، ودراسة حالة الحدث الجامع، واعتباره مريضًا بحاجة إلى علاج لا عقاب.

٣– عمل الوالدين على إيجاد انسجام بينهما من أجل تنشئة أطفالهما.

إن افتراق الزوجين، وانفصالها روحيًا في المنزل، أو روحيًا وماديًا بالطلاق، كل هذا يسبب مشكلات فظيعة للأطفال، قد تؤدي إلى إجرامهم كبارًا. لقد وجدت عندما كنت أقوم يبحث على الأحداث في

الإصلاحيات بمصر، أن أكثر من ٩٠٪ منهم جمحوا وانغمسوا في الإجرام نتيجة لانفصال الوالدين أو تنابذهما، ونتيجة لاضطرار الطفل لمعاشرة زوجة أب أو زوج أم.

وقد يكون من أهم طرق الوقاية من شر الاختلاف والتنابذ والانفصال، أن يعني كل من الفتى والفتاة، وكذلك أهلوهم، بأن يكون الزواج قائمًا على أساس من تقارب الأمزجة والطباع والمثل، لا على أساس مادي أو مظهري أو عائلي، أو غير ذلك مما يحطم الحياة الزوجية تحطيمًا تامًا في بعض الأحيان، أو تحطيمًا روحيًا في بعض الأحيان الأخرى، ويقاسي الأطفال نفسيًا من ذلك شر المقاساة، كما يقاسي المجتمع منهم بعد أن يكبروا.

٤- مراجعة قانون العقوبات، ومحاولة الحاكم دراسة نفسية المجرم الذي يقف أمامه، وكذلك تاريخه ووازع الجريمة؛ حتى يحكم بالعقاب المناسب الذي من شأنه أن يكون أداة إصلاح. في جرائم متماثلة، قد يكون أصلح لمجرم أن يوضع تحت المراقبة مدة من الزمن، بدلًا من عقابه بالسجن، بينما يكون أصلح لمجرم آخر اقترف الجريمة نفسها أن توقع عليه عقوبة من العقوبات.

ولذلك يهتم كثيرًا الآن بأن يدرس علم النفس الجنائي دراسة واسعة في الكليات التي تعد رجال القضاء، بل ورجال الشرطة أيضًا. بل يفكرون في بعض البلاد بأن يكون بين أعضاء المحاكم التي تحاكم المجرمين رجل مختص في التحليل النفسي.

إن العقوبة التي لا تتناسب مع الجرم، قد تحطم في المجرم فكرة العدالة، فيخرج إلى المجتمع بعد توقيع العقوبة عليه حانقًا، مليئًا بروح العدوان، الذي يدفعه للإجرام ثانية.

كما أن العقوبة الطفيفة قد لا تسد حاجة المجرم للعقاب، فيبقى جزء من الشعور بالذنب في نفسه. وقد يدفعه هذا إلى الجريمة، كما سبق أن وضحنا من قبل، حتى ينال العقاب الذي يخلصه من ذنبه القديم وذنبه الجديد.

ثم إن السجون نفسها بحاجة إلى إصلاح، ومعاملة المجرمين فيها بحاجة إلى أن تقوم على أساس على نفسي. ولا يتسع المقام للخوض في ذلك كله في بحث مثل هذا البحث.

الباب الرابع

هزيمة الضمير وانحلاله

مقاومة الذات السفلى للضمير:

رأينا من قبل كيف أن الضمير يتحكم في النفس الغريزية الهمجية، تلك التي سميناها بالذات السفلى. وأشرنا إشارات عابرة إلى كيف أن غرائز هذه الذات ودوافعها، تستطيع في بعض الأحيان أن تنجح في صراعها مع الضمير، وتتغلب عليه، وتسوق المرء إلى الجموح في المجتمع.

وسوف نبحث الآن في الطرائق التي تتمكن بها الذات السفلى من النجاح في صراعها مع الضمير، وتبدأ تتحكم فيه، وبذلك تدفع الإنسان لأن يسلك سلوكًا شائنًا، بالرغم من حوزه قوة أخلاقية عظيمة في نفسه.

ويبدو طبعًا أننا بهذا نعالج موضوعًا عظيم السعة، شديد التعقيد وقد نضطر لأن نعيد شيئًا ما سبق ذكره في الأبواب السابقة، لكي نوضح تمامًا كيف أن الضمير في بعض الأحيان يقع فريسة الهزيمة أمام دوافع الذات السفلى.

إن الذات السفلى، مليئة بدوافع، إذا لم تجد ما يحكمها ويضبطها فإنها تجر الإنسان إلى أن يقوم بسلوك وأفعال غير اجتماعية، ومنافية لما تواضع عليه المجتمع من مثل وأخلاق وتقاليد، وما علينا لكي نفهم ذلك

سوى أن نلاحظ طفلًا في الثانية أو الثالثة أو الرابعة من عمره، إنه لو ترك ونفسه دون رقابة أو ضبط، ليقلب المنزل رأسًا على عقب، بل ربما ينتهي به الأمر لأن يدمر نفسه، أو على الأقل لأن يتسبب في أضرار كثيرة تحل به. إننا لا نستطيع لكي نؤمنه ضد دوافع نفسه الهمجية، أن نتركه وحيدًا إلا بالقدر الذي نستشعر منه أن أوامر الكبار ونواهيهم قد لقيت صدى في داخل نفسه، أي قد تمثلها الطفل، فأصبحت قوى داخلية رادعة له عن الإضرار بنفسه أو بغيره، أي أصبحت بمثابة نواة لضميره أو ذاته العليا التي سوف تنمو وتترعرع فيما بعد.

إن السلوك الصالح أو السلوك الإجرامي، ليتوقف تبعًا لذلك على النسبة بين شدة الدوافع الهمجية والمنافية للمجتمع، والقوى الضابطة المتحكمة في هذه الدوافع من الخارج أو من داخل النفس؛ إذ يتوقف على الصلة بين شدة هذه الدوافع، وتلك القوى سلوك الذات أو النفس، أو صورة شخصية المرء في الحياة.

ولذلك يجب أن تأخذ بعين الاعتبار، عندما ندرس الظروف التي تعمل على إضعاف الضمير، ليس فقط العوامل التي تنخر فيه وتساعد على تفكيكه، بل يجب أيضًا أن ندرس العوامل التي تساعد على إيجاد شدة في دوافع الذات السفلى أو النفس الهمجية، إن وجدت مثل تلك العوامل. ويجب أن نتذكر ما سبق أن أشرنا إليه من قبل، وهو أن من مظاهر ضعف الضمير، كثرة الآثام، والجرائم التي تصدر من المرء، والتي معناها طبعًا جموح الإنسان وكسره القواعد والمستويات الخلقية، وخروجه على النظم الاجتماعية والقوانين والشرائع التي وضعت لكي

يعيش الإنسان في ظلها، ليضمن لنفسه حياة فردية آمنة، وسط مجتمع آمن متناسق.

شدة دوافع الذات السفلى:

فمن حيث شدة الدوافع في النفس الهمجية، نجد أن علماء النفس المعتدلين وعلى رأسهم مكدوجل، يشيرون إلى أن الجموح والإثم والإجرام، ليست في الحقيقة سوى مظاهر طبيعية للدوافع الغريزية التي لا تجد قوي كافية تضبطها وتتحكم فيها. فيقول العلامة الإنجليزي س. برت C. Burt في كتابه (الطفل الجامح) The Delinquent Child: إن أنواع الجموح المختلفة من سرقة أو عدوان أو خطايا جنسية إلى غير ذلك، بل والتشرد أيضًا ليست سوى تعبيرات ومظاهر لغرائز معينة بالذات، بالمعنى الذي يتكلم في ضوئه مكدوجل عنها. وعلاوة على ذلك، فإنه يقول إن هناك عاملًا عامًا لشدة الغرائز أو قوة نواحيها الانفعالية، فالغرائز من مقاتلة وجنسية وحب سيطرة.. إلى غير ذلك، بالرغم من اختلافها في النوع، فإنها محملة جميعًا بطاقة أو قوة أو فعالية، تختلف باختلاف الأفراد. وبما أن الغرائز قوى فطرية غير مكتسبة، فإن الطاقة أو القوة أو الفعالية التي تشحن بها، هي أيضًا فطرية غير مكتسبة. ومعنى ذلك أن الفرد الذي يرث هذه الطاقة الغريزية بدرجة عظيمة –إذا تساوت الظروف الأخرى– يكون معرضًا للجموح أكثر من ذلك الذي يرثها بدرجة أقل، إنه يكون بحاجة إلى مقدار من الضبط – داخليًا كان أم خارجيًا– أكبر من مقدار الضبط الذي يكون الآخر بحاجة إليه، إذا أردنا ألا تتجه هذه الغرائز به اتجاهًا غير اجتماعي وغير أخلاقي.

ويرى برت Bart أيضًا، أن نوع الغريزة نفسها له أهمية كبرى في تعرض الإنسان للشذوذ والجموح والإجرام. ويقسم الغرائز من حيث نوعها إلى قسمين: قسم إيجابي، مثل المقاتلة، والغريزة الاجتماعية، والغريزة الجنسية وغريزة السيطرة، وقسم سلبي مثل الخوف والنفور والخنوع.[1]

فالأشخاص الذين لديهم بالفطرة، غرائز إيجابية قوية، يكونون عرضة للجموح والإجرام، أكثر من أولئك الذين يرثون غرائز إيجابية ضعيفة، طبعًا إذا تساوت الظروف الأخرى، المحيط وتأثيره، ومعاملة الوالدين، ونوع المخالطين للشخص.. إلى غير ذلك.

أما أولئك الذين يرثون الغرائز السلبية بشكل قوي، فإنهم يكونون عرضة للأمراض النفسية. أو يكونون عرضة للعصاب النفسي، أكثر من أولئك الذين يرثون تلك الغرائز بدرجة ضعيفة.

والتحليل النفسي يتفق في هذه الآراء، كما يتفق في آراء أخرى سبق أن ذكرناها من قبل مع هذه المدارس الأرثوذكسية، فهو يعترف بأهمية هذه الغرائز وأهمية طاقاتها وقواها وفعالياتها الفطرية، ولكنه درس

([1]) الغريزة الإيجابية هي تلك التي يحققها المرء باتخاذ موقف إيجابى إزاء مثيرها، فغريزة المقاتلة تدفع الإنسان للقتال، والاجتماعية تدفع للبحث عن غيره لكي يجتمع به، والجنسية تدفعه للتقرب من الجنس الآخر، والسيطرة تدفعه للكفاح والغلبة والتفوق.
أما الغريزة السلبية، فهي التي يكون موقف الإنسان عند تحقيقها سلبيًا إزاء مثيرها، فهو يحقق غريزة الخوف بالهرب، والنفور بالابتعاد، والاستعانة بالاستسلام والخضوع.

المؤثرات البيئية ربما أكثر من غيره، واهتم أيضًا أكثر من غيره من المدارس بما لهذه المؤثرات البيئية من قيمة كبرى في تعديل الغرائز الأصلية، وتوجيهها وجهات خاصة.

أثر التدليل في تكوين الضمير:

وأول هذه المؤثرات المحيطية وأبسطها (التدليل)، أو ما يمكن أن يعبر عنه بالتسامح الزائد الذي لا مبرر له مع الطفل، والذي يتمخض عن السماح له بأن يعبر عن دوافعه الغريزية بأية طريقة توصله إلى أغراضه، ولو كان ذلك على حساب الآخرين، دون أن يتعرض في قيامه بذلك لأي منع أو ردع أو عقاب يذكر. ومعنى ذلك أن مثل هذا الفرد يتعلم منذ طفولته أن الإثم والجريمة مفيدة؛ لأنها توصله إلى أهدافه، وأنه ليس هناك من ضرورة تلجئه إلى أن يحسن سلوكه ويضبطه حتى يكون سلوكًا اجتماعيًا؛ لأن في ذلك تضحية من جانبه ببعض رغباته وأهدافه، وقد تعود منذ حداثته أن يحقق رغباته وأهدافه كلها، وأن يستشعر الرضا واللذة من ذلك، مهما أدى تحقيقها إلى الإضرار بالآخرين. لقد تعود أن ينقاد لدوافعه البدائية أنى توجهه، دون أن يجابه مانعًا أو حاجزًا أو ضابطًا، وبذلك لا يتمثل في نفسه أوامر أو نواهٍ تصبح قوى ضابطة داخلية، أي لا يتكون لديه ذات عليا أو ضمير يذكر. فيجمح صغيرًا ويجرم كبيرًا، دون شعور تبعًا لذلك بحاجة إلى عقاب، بل إنه ليعجب من أي عقاب يوقع عليه، ويعده ظلمًا وعدوانًا، يرد عليه بظلم وعدوان وإجرام.

وفي الحياة الواقعية، يشك كثيرًا في إمكانية وجود مثل هذا الصنف

من الإنسان؛ إذ في الغالب نجد أن أكثر الوالدين تسامحًا مع طفلهم، مضطرون لصالحه وصالحهم، أن يرسموا له بعض الحدود ويكبلوه ببعض القيود، ويفرضوا عليه شيئًا من الضوابط، ولا يمنحوه تلك الحرية الطليقة المطلقة لتحقيق رغباته ودوافعه الأنانية؛ ولذلك يتكون في مثل هذا الطفل ضمير إلى درجة ما، ويصبح قادرًا على استشعار الذنب إلى حد ما أيضًا.

ولكن ضمائر هؤلاء الأفراد لا تكون من القوة بحيث تضبط الدوافع الهمجية الثائرة في ذواتهم السفلي، وتكبح جماح رغباتهم الأنانية، التي تزخر بها نفوسهم الواقعية.

ولذلك كثيرًا ما ينهزم الضمير أمام تلك الدوافع والرغبات، فيجمح هؤلاء الأفراد ويجرمون، ويأثمون ويذنبون، ويعجز العقاب في صوره المختلفة أن يكون ضابطًا مانعًا، وقوة رادعة لهم بل قد يزيد من استدارة دوافعهم العدوانية، وينقلبون بسببه مجرمين قاسين في إجرامهم، آثمين مستهترين في إثمهم.

إننا لنجد في الحياة أمثلة من هذا النوع من الإنسان أو قريبة منه، في الطفل الوحيد ينشأ بين أحضان والدين متسامحين، أو في الطفل الذكر بين عدة أخوات أو في الطفل الأنثى بين عدة ذكور، وفي هؤلاء خصوصًا إن كانوا ضعافًا في ذكائهم، أو ضعافًا في بنيتهم، معرضين للأمراض الكثيرة التي تجعل والديهم أكثر تسامحًا معهم، مما لو كانوا أصحاء أشداء.

كما نجد أمثلة لهذا النوع أيضًا، في الطفل ذي الأبوين المستهترين

اللذين يطبقان عليه مستوياتهما الخلقية الوضيعة، فيتركانه يحقق رغباته وشهواته ودوافعه، دون تقيد بنظام اجتماعي، أو مثل خلقية إنه لا يلمس فيهما ضابطًا متحكمًا، ولا يرى فيهما زاجرًا أو رادعًا وبذلك لا يتمثل منهما داخل ذاته ضميرًا يذكر.

أثر القسوة والشدة في تكوين الضمير:

وثمة مؤثر محيطي آخر، يختلف الاختلاف كله عن التدليل أو التسامح المبالغ فيه، وهو العقاب المبالغ فيه، والقسوة الطاغية التي لا مبرر لها. فبعض الأطفال يقاسون من والدهم غلظة وفظاظة، ولا يستشعرون منهم حبًا أو عطفًا يذكر، إنهم دائمًا ينتقدون تصرفاتهم، ويحقرونهم ويعاقبونهم على أتفه الأسباب عقابًا صارمًا وبذلك يكون الطفل من هؤلاء في حالة فقر مدقع للحب والعطف، لا يستشعر رضًا على سلوك طيب، ولا يلمس ثوابًا إذا عمل تبعًا لما يريده والداه. ويتمثل الطفل في ضميره الأبوين على هذه الصورة العابسة القاسية الفظة، وتصبح القوة الداخلية المتحكمة فيه متجهمة شديد التجهم، مكفهرة قبيحة الاكفهرار، وتشعر النفس الواقعية بيأس منها، فتثور عليها ولا تلقي لها بالًا، ولا تعمل لها حسابًا، بل تلتمس اللذة في أن ترضي النفس الهمجية، وتحقق دوافعها الأولية ورغباتها الخاصة الأنانية. ماذا تخسر بذلك التصرف؟ إنها لا تتوقع جزاءًا ولا شكورًا من الضمير إن قامت بما يرضيه، بل على العكس تراه جامدًا دائمًا، عابس دائمًا، رافعًا يده للبطش بها دائمًا، لقد كرهته وأبغضته، وفقدت بهذه المعاملة الظالمة، إحساسها بالعدالة الداخلية فلتولِ ظهرها إليه، ولتقبل على رغباتها الأنانية الخاصة،

وعلى الذات النفس البدائية ترتشف منها ما تشاء، ولتدعه يضرب ما شاء له الضرب. ويعاقب ما حلى له العقاب. وبذلك تنغمس الذات الواقعية في الإثم، وتهيم في ضلالة الجرائم لا يردعها عقاب، ولا يقفها عن غيها عذاب.

هنا أيضًا نشهد مصرع الضمير وهزيمته.

إنا نجد أمثلة هذا النوع من الأفراد في الطفل ذي الوالدين القاسيين، أو في الطفل المحروم من عطفهما حرمانًا كبيرة، لأنهما متلهيان عنه، أو في الطفل غير المرغوب فيه، لأنه أنثى والوالدان يحبان الذكور، أو لأنه ذكر وهما يحبان الإناث، أو لأنه ابن زوج منهما، وليس ابنًا للآخر، أو لأنه يتيم يرى فيه الوالد الذي يعاشره عبئًا ثقيلًا، يتمنى لو يرفع عنه، بل وقد يشعره كثيرًا بما يحس به نحوه.. وهكذا.

ولهذا يجمح الطفل فتى، ويجرم راشدًا، ويتغلغل في الفساد، ولا ينفعه العقاب إلا أن يزيده كراهية وبغضًا للمجتمع ونظمه، ويلهب ثورته، وينفخ في سعير فورته.

إن مثل هذا الإنسان ليس بحاجة إلى عقاب يقفه عن غيه، ولكنه بحاجة إلى عطف وحب يتمثلهما، من محيطه، من المتنفذين في مجتمعه، حتى يدخل شيء من النور في ذلك الضمير المعتم يمسح شيئًا من كآبته، ويجعله قادرًا على أن يبتسم ويرضى ويحب.

إن مثل هذا العلاج ليس بالأمر اليسير مع المجرمين أو الجامحين من هذا الصنف، بل إننا لنجد في أول الأمر عندما نتسامح معهم،

وتشعرهم بشيء من العطف، رد فعل فظيع على شكل سلوك زائد في العنف منهم، وجموح أشد خطرًا من جموحهم السابق؛ إذ يرون في تسامحنا معهم وعطفنا عليهم ضعفًا وخورًا وهزيمة منا، ولكن التسامح التدريجي والعطف المتسلسل، وفوق ذلك الصبر والأناة، كل ذلك كفيل أن يحول الجموح والعدوان إلى قوى خائرة تطأطئ الرأس أمامنا، وإلى دموع سخينة تتهاطل من مآقي المجرم، وإلى اعتراف صريح بأن ليس في الحياة من يحبه ويعطف عليه، وهو مفتقر إلى الحب والعطف، وإلى من يقيه كراهيته للعالم وتخريبه فيه. فإذا وصلنا إلى هذه المرحلة، يمكن أن نبدأ تربيته من جديد، وذلك بأن نجازيه خيرًا كلما تعاون معنا في ضبط دوافعه، ونعطيه عملًا يقوم به، ويرد له اعتبار المجتمع له، ويمحو شعوره بأنه منبوذ منه، ويسد تلك الحاجة التي تكلمنا عنها في الباب الثاني، وهي حاجة المرء لأن يحتاج إليه.

إن الطرق الحديثة القائمة على التسامح والرأفة في معالجة الجموح في الحالات التي من هذا النوع، قد أثبتت جدارتها ونجاحها، بالرغم مما تسببه من العناء الكبير، وما تتطلبه من المهارة والتبصر والصبر، بالمقارنة مع الطرق التقليدية القديمة، عديمة الجدوى في الغالب، القائمة على مجرد القسوة وزيادة الضبط.

أثر التذبذب في معالمة الطفل:

وثمة مؤثر محيطي آخر هو عدم ثبات المعاملة التي يعامل بها الطفل، فهو في بعض الأحيان يعاني عقابًا ظالمًا عنيفًا من والديه. وفي

بعض الأحيان الأخرى يعامل باللين والتسامح الزائد والتدليل. وقد أشرنا إلى هذه المعاملة في الباب الثاني، وما ينتج عنها من تمثل الطفل في ذاته العليا أو ضميره مثلين متناقضين، يجعلانه يقف حيرانًا في الحياة، لا يدري على أي نهج منهما يسير، ثم إذا به يضحي بهما معًا، وبضميره الذي تتكون نواته منهما، قوة منقسمة متخاذلة خائرة، لا تستحق أن تحترم أو يعمل لها حساب، ويتجه الطفل إلى رغباته الأنانية، وإلى غرائزه البدائية، أو تتجه الذات إلى رغباتها الخاصة وإلى دوافع الذات السفلى تحققها، مولية ظهرها للضمير، الذي هزمه انقسامه. وصرعه تفرقه، وخذله شقاقه. ويجمح الإنسان في الحياة غير مكترث بالقوى الاجتماعية أو الخلقية؛ لأن انطباعه عنها أنها قوة منقسمة غير متآلفة وغير منسجمة.

على أن هذا الصنف من الناس بالقدر الذي يجمحون به ويجرمون، قد يسلكون أيضًا سلوكًا اجتماعيًا طيبًا، إنهم على قدر ما يعتدون على الغير، قد ينصرون الضعيف، ويردون عنه أي عدوان يقع عليه، وإنهم قد ينهبون ويسرقون، وفي الوقت نفسه قد يساعدون الفقير، ويعطفون على البائس، وكأنهم يسيرون في الحياة على غير هدى، لا يعرفون أين يتجهون، ولا على أي أرض يثبتون أقدامهم.

والطفل الذي يلقى هذه المعاملة غير الثابتة أو المذبذبة، يضطر لأن يلجأ إلى اختيار ذويه، والقيام بشيء يشبه التجربة عليهم، حتى يتبين أي نوع من المعاملة يعاملونه بها إزاء السلوك الذي قام به، أو يرغب في أن يقوم به. هل يا ترى إذا سلك ذلك السلوك يفقد عطفهم وحد بهم عليه

أم يستبقيه ويظل مستمتعًا به؟ وقد يصبح هذا الاختيار لزومًا متكررة (Obsession) أو عادة متمكنة، تؤدي به إلى ارتكاب أعمال عدوانية، أو تحقيق رغبات غير اجتماعية، ليستوثق أنه بالرغم من ذلك، لا يزال موضع حب ذويه. وقد تكون هذه الأعمال العدوانية، أو تحقيق الرغبات الأنانية أمرًا خياليًا يتخيل أنه قام بها فعلًا. ومثل الأولى مثل الولد الذي كان يعتدي على أمه باللكم، ثم يطلب منها أن تقبله عددًا من المرات ضعف عدد لكمه إياها، ومثل آخر درسه فلوجل Flugel، حالة شخص كان في كل مساء يرجع إلى المنزل، يبحث عن شيء أو أي سبب يثير تذمره، ثم ينفجر لائمًا سابًا شاتمًا، فإذا ثبت ذووه في الاختبار، وظلوا هادئين مسالمين عطوفين عليه، هدأ ثائره، وتحول إلى شخص مسالم عطوف[1].

إن هذا التصرف من جانب الرجل، كان نتيجة لشعور كبير بالذنب تجاه زوجته، إذ لم يكن مخلصا لها، وكأنه بكثرة تذمره وعدوانه كل يوم، يريد أن يطمئن نفسه، إلى أنها باقية على حبها له مهما فعل، أي كأنه بشكل لا شعوري يؤمن نفسه بصفحتها عنه وغفرانها آثامه.

ومثل الأعمال العدوانية الخيالية، مثل الطفل الذي يذكره برت Burt في كتابه (العقل الشاذ) The Subnormal Mind، الذي كان يضايق أمه كثيرًا وقت النوم بأسئلة كثيرة يوجهها لها، عن ذنوب وخطايا يقول إنه لم يقترفها، ولكنه يسألها: "إذا كنت قد ارتكبتها، فإنك

---

(1) من كتاب Man Morals & Society by J. C. Flugel.

تصفحين عني يا أماه أليس كذلك؟"، وكان الولد يرزح تحت عبء شعور كبير بالذنب، ناتج عن أن ذاته كانت تزخر برغبات فظيعة غير أخلاقية عند النوم.

إن علاج الأفراد الذين من هذا النوع يتأتي بإصلاح التذبذب في المعاملة من جانب المربين، وذلك بأن يثبتوا على نهج واحد في معاملة الطفل، وبأن يثبتوا الطفل بانتظام على سلوكه الطيب كلما سلكه، وأن يشعروه في نظام أيضًا بسخطهم عليه، بل وأن يوقعوا عقابهم عليه إذا لم يصل سلوكه إلى المستوى المطلوب، مع مراعاة ما سبق أن ذكرنا من حيث أن الثواب أو العقاب يكون متناسبًا مع سلوكه، ومن حيث ألا ينظر للطفل كأنه فرد اكتمل نموه، فينتظر منه أن يصل سلوكه إلى المستوى المطلوب من الراشد، بل ينظر له طفلًا ينمو وتترقى مثله بالتدريج.

أما ذلك الاختبار والتلمس والتحسس لاتجاهات ذويه والمتنفذين فيه، بالقيام بأعمال عدوانية ضدهم أو مخالفة لمثلهم، فيمكن معالجته بتفهم السبب أو الأسباب الحقيقية العميقة المشاعر الذنب التي تؤدي إلى الاختبار، ومعالجته منها حتى تمحى وتزول، أو بأخذ اتجاه صبور رحيم متسامح معه، وإشعار الفرد بأننا ننظر إلى اختباره كما لو كان لهوًا صبيانيًا. وبذلك تثبت المثل الطيبة الرجراجة في ضميره ويبدأ يستشعر شيئًا من الخجل وخيبة الظن أيضًا من تلك الأعمال العدوانية فيقلع عنها.

وزيادة على الحالات السابقة التي رأينا فيها كيف يصرع الضمير

ويهزم، نجد حالات أخرى يعرض الضمير فيها إلى شيء من الهزيمة قد تكون وقتية أو متكررة، ففي بعض الأحيان تثور الذات ضد الضمير المتحكم فيها وتتمرد عليه، عندما يثقل عليها سلطانه وجبروته وظلمه، فبعض الأشخاص، عندما يواجههم المجتمع بأمر يمنعهم من القيام به، نجدهم ينجذبون إليه ويقومون به، بالرغم من أنه لا يحمل هم فائدة شخصية أو لذة ذاتية، أي أن النواهي الجديدة قد تغري بعض الأشخاص بأن يقوموا بها، وقد تغري الأوامر الجديدة هؤلاء بكسرها والثورة عليها، بالرغم من تمثلهم إياها في ضمائرهم، وكأن الذات في هذه الحالة تحس تهديدًا جديدًا لكيانها وحريتها المحدودة، فتعمل على أن تؤكد نفسها محتجة على تلك القيود الجديدة التي يعمل الضمير على أن يكبلها بها؛ ولذلك تثور ضده، وتكسر هذه الأوامر والنواهي، أو بعبارة أخرى كأن هذا القيد الجديد يعمل على أن يشعرها بنقص زائد تجاه الضمير، فيثير فيها ذلك غريزة السيطرة والنزعة التفوق التي تحققها على شكل ثورة ضد الضمير، ومخالفة له فيما يملي عليها من أمر جديد.

وفي بعض الأحيان نجد أن الثورة ضد الضمير تسقط على من يمثلون الضمير خارج النفس، على ذوي السلطان مثلًا من مربين أو رؤساء أو حكام أو غيرهم. فبين الناس أشخاص ثائرون دائمًا على ذوي السلطان، حانقون حاقدون عليهم مهما تبدلوا ومهما اكتملوا. وليس هذا في الحقيقة إلا انعكاسًا لثورة ذات الواحد منهم ضد الضمير المتنفذ فيها، الضاغط لها، الرقيب المتيقظ عليها، ومحاولة إرضاء دوافع الذات غير الاجتماعية ودوافع الذات السفلى بهذه الوسيلة.

وثمة حالة أخرى تبدو فيها مظاهر هزيمة الضمير، فالذات قد تزخر بدوافع الثورة والاحتجاج ضد الضمير، ولكنها لا تستطيع أن تحققها كلها، فتكبت هذه الدوافع كبتًا جزئيًا، وتستشعر الذات أنها معرقلة مكبلة دون أن تدرك تمامًا السبب الحقيقي لذلك. وإذا بالإنسان حاقد على أولئك الذين لم يثقلهم الكبت الذي يحس ضغطه في ذاته، حاقد على أولئك الذين يستمتعون في حياتهم بحرية أكثر مما يستمتع بها، ثم إذا به يثور ضدهم، ويضطهدهم ويؤلب الناس عليهم. وكثيرًا ما تحدث ثورات اجتماعية بسبب ذلك، يرضي الناس فيها دوافع نفوسهم الهمجية، ورغباتهم الذاتية المكبوتة، دون أن يستطيع الضمير ضبطها والتحكم فيها.

ضعف الضمير:

أوضحنا فيما سبق أثر الذات والذات السفلى في الضمير، وكيف تؤثر بعض ظروف البيئة في الإنسان تأثيرًا من شأنه أن تسقط الذات العليا مندحرة أمام قوى الذات السفلى أو النفس الهمجية، وأمام الرغبات المكبوتة في النفس الواقعية التي لا يقرها الضمير، والآن نتكلم عن العوامل التي بسببها يضعف الضمير، وتتمزق قواه.

وأول عامل يمكن أن نذكره، عامل وراثي لا دخل للإنسان فيه، ولا حول له ولا قوة عليه، وهو عامل الذكاء، فإذا كان الذكاء الذي يرثه الإنسان قليلًا محدودًا، كان تكوين ضميره ضعيفًا محدودًا أيضًا؛ وذلك لأن مثل هذا الإنسان في كل مرحلة من مراحل حياته، لا يستطيع أن يدرك قيمة الضوابط والروادع والأوامر والنواهي التي يفرضها عليه

المتنفذون فيه. إنه لا يستطيع أن يدرك لماذا يقف المجتمع بينه وبين تحقيق دوافعه الأصلية، ورغباته الذاتية وبذلك لا يتمثل من المجتمع قوى الضبط والأمر والنهي بدرجة التساند والتغلغل نفسها، التي يتمثلها بها الإنسان الذكي؛ ولذلك نجد المعتوه والأبله أقرب إلى حيوان خالٍ من قوى ضبط خلقية واجتماعية في داخل نفسه، أي يكاد يكون خاليًا من الضمير. ونجد المأفون Moron –وهو أقل درجة في الذكاء ممن تعرفه بالغبي– ذا ضمير ضعيف مفكك، سريع التحلل والاندحار أمام دوافع النفس الهمجية، ونجد الغبي على وجه العموم كثير الإثم والجموح والإجرام إذا ما قورن بالإنسان الذكي. كما نجد أيضًا أن الأذكياء –في الغالب– يكونون ضمائر قوية متساندة الميول، منسجمة التركيب، تتحكم في نفوسهم الواقعية تحكمًا لطيفًا مريحًا، دون اللجوء إلى إعمال كبت شديد فيها قد يؤدي إلى ثورة أو تمرد أو شذوذ.

والمجتمع لا يستطيع أن يقوم بشيء يذكر تجاه تقوية الذكاء، ولكن في بعض البلاد استطاع أن يساعد الأغبياء والمأفونين إلى درجة كبيرة، وحاول أن يجعلهم منذ حداثتهم سعداء فيه، مطمئنين إليه، وذلك بمعاملتهم اجتماعيًا وأخلاقيًا تبعًا لدرجة الذكاء إلى هم عليه حتى أن حكومات تلك البلاد فتحت مدارس خاصة للمأفونين.

أما من ناحية البلهاء والمعتوهين فالجدال لا يزال قائمًا؛ إذ بزغت فكرة يومًا من الأيام يمنعهم عن التناسل حتى ينقرضوا. ثم بزغت فكرة أخرى بجمعهم ووضعهم في جهات خاصة بهم، لا يختلطون فيها إلا أحدهم مع الآخر، ولا يتزاوجون إلا أحدهم من الأخر، حتى لا ينقلوا

ضعف ذكائهم المريع إلى نسل أفراد أسوياء، كان يمكن أن يخرجوا للحياة نسلًا سويًا، لو تزاوجوا مع أسوياء مثلهم.

وكل ما أستطيع قوله هنا أن هذه المشكلة بحاجة إلى دراسة وجرأة ونظر لصالح المجتمع العام.

أما عوامل البيئة التي تعمل على إضعاف الضمير، فقد ذكرنا عددًا منها عند الكلام عن المؤثرات التي تعمل على تقوية النفس الهمجية، وإعطائها الفرصة للانتصار على الضمير، وألخصها في الدليل، والقسوة المتناهية، والتذبذب في المعاملة.

وهناك عوامل أخرى تؤثر في الضمير وتعمل على تفكيك قواه، وأهمها الخمر والمخدرات. فمن شأن هذه أن تقلل من شعور الإنسان بالضوابط الداخلية لدوافعه الذاتية والهمجية. وبذلك يضعف الضمير أثناء السكر والتخدير. وتجد الذات الفرصة سانحة لتحقيق رغباتها المكبوتة، ودوافع النفس الهمجية. ويكون الإنسان في هذه الحالة أشبه بالحيوان الذي لا يهمه سوى إرضاء غرائزه دون اعتبار لأي شيء آخر؛ ولذلك نجد المخمور أو المخدر مستعدًا لأن يقوم بأفظع الآثام، ويرتكب أشنع الجرائم. فكم من رجل تكون ضميره على أسس قوية متينة، ثم تعود الخمر والحشيش أو غيرهما من تلك المغيبات والمخدرات، وإذا بضميره يتفكك بالتدريج، فيصبح مجرمًا يعتدي لدرجة القتل، ويسرق ويغش ويزني. ثم هو علاوة على ذلك، يضرب أسوأ الأمثلة إلى أولاده ويهملهم، ويغريهم بطريقة لا شعورية، بأن يمرحوا من

غير ضابط ولا زاجر، وبذلك يزداد عدد الجامحين الآثمين المجرمين في المجتمع.

وكذلك يضعف الضمير ويتفكك عند إصابة الإنسان ببعض الأمراض العقلية مثل مرض "الشيزوفرينيا" schizophrenia، الذي يكون الشخص فيه غير اجتماعي، شديد الحساسية كثير التشكك والريبة، ومثل المرض المسمى endomic encephalitis الذي انتشر في أوروبا سنة ١٩١٨، ويتسبب عن التهابات في المخ، وقد يحدث نتيجة له أن يسلك المريض –خصوصًا إذا كان صغير السن– سلوكًا منافيًا للأخلاق، فيعتدي على الغير ويسرق.

جعل الذات العليا مجرمة:

وعلاوة على ذلك، فإن الذات العليا أو الضمير عرضة للكثير من الآفات، إنه يتملق ويرتشي فضلًا عن أنه يغرى ويهزم. وهو لذلك قد يقف جزئيًا في بعض الأحيان إلى جانب السلوك المنافي للأخلاق والمجتمع.

فلقد ذكرنا من قبل أن الإنسان أو الذات تميل في بعض الأحيان إلى أن تقوم بالأشياء الممنوعة التي لا يوافق عليها الضمير طبعًا. ولكي تنجح في ذلك، فإنها تتملق الضمير وتخادعه، فتعطي تلك الأعمال التي لا يوافق عليها صفة المشروعية في بعض ظروف خاصة. وبذلك ينخدع الضمير؛ إذ يرى أن هذا العمل الذي لا يوافق عليه من حيث المبدأ مشروع واجتماعي في ظروف خاصة فقط، فيسمح به للذات في تلك الظروف فقط.

والمثل في ذلك تقبيل الرجل المرأة مهما كانت، أو المرأة الرجل في عيد الميلاد تحت شجرة المستلتو. وهي عادة شائعة لدى الغربيين، ومثل لعب القمار وشرب الخمر في الحفلات الاجتماعية الخيرية، والاستمتاع بالحريات المختلفة في بعض الأعياد والمواسم، مثل عيد الحرية في فرنسا، ومثل شرب الخمر مع جماعة كلهم يشربونها، حتى لا يكون الفرد ناشزًا، وحتى لا يكون السبب الوحيد لعدم متعتهم.. وغير ذلك.

هذه الاستثناءات الصارخة التي يسمح بها الضمير للذات في بعض الظروف، تفتح أول جرح فيه للانحلال؛ إذ إن الذات –وقد ذاقت حلاوة الاستمتاع برغباتها المكبوتة، وبشهوات الذات السفلى– لا تستطيع في بعض الأحيان أن تنساها أو تهجرها، بل قد تعاود الاستمتاع بها في الظروف العادية، ولو كان في ذلك تعذيب الضمير لها، وهكذا تتجرأ الذات على الضمير شيئًا فشيئًا، وتوسع الجرح الذي شقته فيه قليلًا قليلًا، حتى تستنزف دمه وحيويته ونشاطه، فيصيبه الإعياء والعجز، ويصبح معها متسامحًا، لأنه أصبح ضعيفًا منحلًا.

كم تتغير أخلاق بعض الناس نتيجة لتلك الحريات الوقتية التي يسمح الضمير بها في بعض المناسبات الخاصة، كم تكون بداية سيئة لعادات ضارة غير أخلاقية، ولانحلال في تكوين الضمير الإنساني القوي.

كم بدأ بسببها الإدمان على الخمر، وتعود الميسر والقمار، والاستغراق في حياة بهيمة وضيعة، وكم قضى هذا على صحة بعض الناس، وأفسد عليهم استقرارهم بل وحياتهم وحياة من يلوذ بهم.

تحالف بين الذات السفلي والذات العليا:

وثمة طريقة أخرى تلجأ إليها الذات السفلى تجاه الضمير؛ لكي تغرر به للتغاضي عنها والسماح لها بتحقيق دوافعها البهيمية، وهي أن تستدرجه لعقد معاهدة وتحالف لا شعوري معها، ينص على أن يسمح الضمير لها بأن تحقق الذات بعض دوافعها، على شرط أن تدفع الذات ثمنًا لذلك ما يطلبه الضمير. وماذا يطلبه في سبيل ذلك إلا أن يعاقبها، ويحقق ميوله السادية القاسية معها؟

إن قيام هذا التحالف مصدر ضعف تدريجي في التركيب الخلقي للإنسان؛ إذ سرعان ما تستمرئ الذات العقاب، إذ تراه شيئًا لا يذكر بجانب استمتاعها برغباتها، وقضاء شهوات الذات السفلى. وبذلك يزداد التحالف مناعة وقوة، يرى فيه الضمير استبقاء لقوته وسلطانه، وإرضاء لنزعاته السادية، وترى الذات السفلى فيه استمتاعًا بشيء من الحرية. أي مخادعة أكبر من هذا، وأي انتصار للنفس البهيمية ألمع من هذا الانتصار؟!

إن مثل هذا التحالف يشبه التحالف غير المقصود أو التحالف اللا شعوري –إذا صح أن نسميه بذلك– بين رجال الدين وعصابات تجار المخدرات، كلاهما يعضد منع المخدرات. الأولون يعضدونه من الناحية الدينية، والآخرون يعضدونه لكسبهم المادي.[1]

---

(1) ذلك لأنه لو كانت تجارة المخدرات حرة، لما ربحت العصابات تلك الأرباح الباهظة التي نسمع عنها.

لقد رأينا شيئًا من هذا التحالف غير المقصود بين رجال الدين ورجال العصابات في أمريكا عندما سن قانون منع المسكرات، كلاهما كان يعضد القانون: الأولون يستندون إلى أحكام الدين، ورجال العصابات يستندون إلى الرشوة يقدمونها للمتنفذين، حتى يبقوا على هذا القانون الذي يدر عليهم أكبر ربح وأعظم كسب مادي.

ونجد مثلًا لهذا التحالف أيضًا في بعض المتعصبين من الناحية الدينية؛ إذ نجدهم مليئين بالحقد والشر والضغينة والشراسة، ضد الناس الذين يفوقونهم في العلم أو في كسب رضا المجتمع واحترامه. إن الحقد والشر والضغينة والشراسة مظاهر دوافع الذات السفلى، ومظاهر الرغبات الذاتية. فكأن ضمير مثل هذا الشخص قد سمح للذات السفلى بأن تتمتع بشيء من الحرية، مقابل أن يفرض سلطانه على الذات في أن تؤدي الفرائض، وتمتنع عن إرضاء بعض الشهوات الأخرى، وتعيش عيشة فيها شيء من الزهد والتقشف والعزلة، إن التكوين الديني لمثل هذا الشخص تكوين سقيم معل.

الضمير المجرم:

وعلاوة على ذلك فقد يكون الضمير المتكون في الإنسان ضميرًا منحلًا مجرمًا في أصوله وجذوره، عندما تشاء ظروف الحياة القاسية، أن تجعل الطفل ينشأ مع أبوين متحابين أو مجرمين. يتمثل متهما مثلهما الوضيعة. وبذلك ينشأ الطفل جامحًا غير اجتماعي وغير أخلاقي، ويصبح مجرمًا خطيرًا مفسدًا للمجتمع.

لقد سنت بعض البلاد قوانين تسمح بانتشال الأطفال من أحضان والدين منغمسين في الإجرام، ووضعهم في مؤسسات تربوية، يتمثلون فيها المثل الصالحة التي يمكن أن تطغى على المثل الوضيعة التي أشربوها في منازلهم من قبل، وبذلك ينشؤون نشأة سوية اجتماعية أخلاقية.

ويجب أن أذكر أن في جميع الحالات السابقة التي تتهرب الذات فيها من الذات العليا، أو ينهزم الضمير فيها أمام دوافع الذات السفلى والرغبات الذاتية، نلمس أن زعزعة الشعور الداخلي لدى المرء بالعدالة يلعب دورًا كبيرا في ذلك.

فإذا لم يكن هناك جزاء طيب للسلوك الصالح الذي تقوم به الذات، أو إذا وقع على الإنسان عقاب قاسٍ لا يتناسب مطلقًا مع خطيئته وذنبه، أو بعبارة أخرى إذا لم تكن هناك عدالة داخلية، وإحساس بتوازن وتعادل بين سلوك الذات ومعاملة المتنفذين في الإنسان له على هذا السلوك، تثور الذات ضد الضمير، فإن بدا لها متسامحًا لينًا ابتلعته، وجرفته معها النفس البهيمية. وإن بدا لها ظالمًا قاسيًا تمردت عليه، ووقفت أمامه موقف عناد وتحدٍ.

وقد يكون تزعزع الشعور بالعدالة الداخلية هذا ناتجًا عن أسباب بيولوجية مثل المرض المزمن، أو ضعف الجسم أو العاهة. ففي هذه الحالات يشعر بعض الناس أن الحياة ممثلة في المسيطرين عليهم، من والدين ومربين وحكام، بل وقوى روحية= حياة ظالمة، وأن المقاييس

والمعايير والمستويات التي وضعت للناس، لا يمكن أن تنطبق عليهم. إنهم يشعرون شعور الشخص الذي وقع عليه عقاب دون مبرر؛ ولذلك يعطون لأنفسهم شيئًا من الحرية، بل يستشعرون أن من حقهم أن ينعموا بميزات خاصة في الحياة.

إن هؤلاء يتطلبون ولا شك معاملة متبصرة صبورة خاصة، تبث فيهم الشعور بالعدالة الداخلية من أول الحياة؛ حتى يسيروا في ركابها سيرًا متوافقًا معها، منسجمًا مع مجتمعاتها وقوانينها وأنظمتها.

وقد يتأثر الشعور الداخلي بالعدالة بمؤثرات اجتماعية واقتصادية، مثل الفقر المدقع، والتعطل، وفساد الحكام المتنفذين، وغير ذلك، مما يجعل الذات تثور بعنف ضد الضمير، إذ ترى فيه حاكمًا ظالمًا قاسيًا، وقد تنعكس هذه الثورة الداخلية على المجتمع كله، وربما كان هذا من أهم أسباب التمرد والثورات في المجتمعات.

ويمكن أن نلخص هذه المؤثرات فيما يأتي:

١- عدم مكافأة الإنسان على سلوكه الطيب وفضائله وصلاحه، وقد أشرنا إلى ذلك في حالة الطفل الذي يعبس أبوه دائمًا في وجهه، مهما سلك السلوك الذي يرضيه.

وكذلك الزوج الصالح الذي لا يقابل إخلاص زوجه بإخلاص، أو الذي قد يسيء زوجه الظن به فيتهمه اتهامات باطلة، إن هذا قد يثير فيه ثورة على الحياة الزوجية ومقاييسها، وتمردًا من قبل الذات على الضمير. وفعلًا يبدأ المرء يسلك سلوكًا منافيًا لما كان يسلكه من قبل.

٢- المقاساة والتألم المبالغ فيه، إن هذا قد يمحو الشعور بالذنب الذي قد يستشعره المرء، فتبدأ الذات بالثورة على الضمير. والمثل في ذلك الفقر، والمرض المستمر وغير ذلك. وكذلك عقاب الأب الطفل عقابًا صارمًا على كل إثم بسيط، أو مؤاخذة الزوج زوجه، أو الرئيس مرؤوسه مؤاخذة قاسية كلما أخطأ خطأ بسيطًا.. وهكذا.

٣- أن ينال بعض الناس جزاءًا طيبًا عن غير استحقاق، والمثل في ذلك المحسوبيات الكثيرة التي ينعم بها موظفون عن غير جدارة.

٤- التسامح مع المذنبين والمجرمين، وعدم مؤاخذتهم على ما يرتكبون من آثام وذنوب، مما يضعف موقف الضمير وسلطانه ويجعل الذات ترى فيه قوة صورية، وإذا بها تهزأ به، أو تتمرد عليه.

٥- إهمال التقاليد، والقوانين الاجتماعية، والنظم، والمعايير الخلقية، في بعض الظروف الخاصة، في الحروب مثلًا أو الثورات. إذ تشعر الذات أنها تقاسي كثيرًا، أو أن أمامها طريقًا شاقًا مضنيًا يجب أن تسير فيه، فيمحى بذلك الشعور بالذنب وتغلب الذات السفلى على الضمير، بل وكأن الضمير قد أسقط على الشعب المحارب أو الثائر، فأصبح يستمد قوته ومقاييسه منه، وبذلك يستحل بعض الناس لأنفسهم أن يرتكبوا كل خطيئة من سرقة وقتل ورشوة وغير ذلك.

وبالرغم من ذلك نجد أن بعض الناس، حتى في هذه الظروف التي شرحناها لا يزالون مستمسكين بضمائرهم، مهتدين على هديها وأنوارها.

هؤلاء هم الذين نشؤوا نشأة طيبة كونت فيهم ضمائر قوية منسجمة العناصر، متحدة المقاصد، لا تستطيع الذات السفلى أن تجد سبيلًا لإرشائها أو خداعها أو التسلل إليها.

بقيت نقطة أخرى سبق لي في المحاضرة الثانية أن نوهت بها: وهي الصراعات التي قد تنشأ في الذات المثلى، نتيجة لعوامل ذكرتها، ومنها أن الإنسان قد يتمثل من والديه مثلًا، فإذا ما تغلغل في الحياة الاجتماعية، فإنه قد يتمثل منها مثلًا تخالف الأولى، فيحدث صراع بينها يتوقف نتيجته على قوة تركيب المثل الأولى.

نشهد هذا بشكل واضح محدود في بعض الشباب الذين قد يدخل في ذاتهم المثلى، وخصوصًا في دور البلوغ والشباب، عناصر جديدة مشتقة من أشخاص معينين. فقد يبدأ الفتي يتخذ مثلًا له فتى آخر أو رجلًا كثير الاعتداء، أو يشرب الخمر، فإذا به يفعل مثله. وقد يضطره هذا للسرقة أيضًا، وللسبب نفسه قد تضطر الفتاة إلى اختلاس الملابس أو أدوات الزينة، أو النقود التي تستطيع أن تحصل بها على ذلك، حتى تظهر فاتنة جذابة مثل الفتيات اللواتي اتخذتهن مثلالها. ويتبين من هذا أن عاملًا جديدًا نشأ من المجتمع، وتمثله الإنسان، فأضعف من تكوين ضميره.

ولكني أريد أن أشير هنا إلى ما هو أهم من ذلك وأعم، وخصوصًا في هذا العهد الدقيق الذي يمر الشرق به اليوم، والذي يضطرب العالم فيه اضطراب عنيفًا شديدًا.

فلقد بدأت بعض الأبصار ترنو إلى مجتمعات غير هذا المجتمع ويتخذ بعض الناس مثلًا من تقاليد وأنظمة ومعايير غير التقاليد والأنظمة والمعايير السائدة.

إن في هذا شيئًا من الحق، ولكن ليس فيه الحق كله.

إن من واجبنا حقًا أن نستفيد من خبرات الغير ومن معلوماتهم، ولكن أن ننظر إليهم مثلًا أعلى، وهم زاخرون بالمساوئ والنقائص، ثم نتمثل هذا المثل ليتصارع مع مثلنا السابقة ، إن في قيامنا بذلك هدمًا وقلقًا وترنحًا لنا أفرادًا ومجتمعات، وفيه تهديد لأمننا النفسي، وزعزعة لتكويننا الخلقي وانزلاق إلى الهاوية؛ لأن هذا الصراع قد يؤدي إلى تغلب دوافع الذات السفلى فينا، وجرف نفوسنا الشهوانية لنا، وبذلك نجلب على أنفسنا الشقاء.

خذوا مثلًا مشكلة الزواج الآن في الشرق، خصوصًا بين الطبقات المثقفة. لقد سبق لي أن أشرت إلى هذا النظام الاجتماعي لأننا نعده من الناحية النفسية أهم الأنظمة، إذ في رحابه تتكون الأفراد، وفي دائرته توضع جميع الأسس لكل بنيان اجتماعي.

هل تريدون أن نتمثل في الحياة الزوجية مثل المجتمعات الأخرى بجملتها بما فيها من خير وشر؟ أليس الأفضل أن تمثل منها خيرها بالتدريج، وما يتفق منها مع الحياة الكريمة وأهداف الزواج؟

لقد بدأت بعض المجتمعات تئن من الفوضى الضارية أطنابها في حياتهم الزوجية، ويكفي أن أذكر أن الزواج الحديث في أمريكا مثلًا زواج

فاشل، وأن الإحصائيات في السنوات الأخيرة كشفت عن أمر أزعج الأخلاقيين ورجال الإصلاح، فإن أكثر من ٦٠٪ من الزيجات السنوية الحديثة تنتهي إلى طلاق.

لماذا تثور ضد تقاليدنا كلها. ونرى في تقاليد الغير وأنظمتهم كل خير، بينما هم يئنون منها ويثورون عليها؟! أننسى أن المفاسد والثورات والحروب تصدر عن تلك المجمعات التي نرنو إليها مثلًا أعلى للعادات والأخلاق والنظم؟ وماذا تعني هذه الثورات والحروب إلا فساد الضمائر، وتهتك الأخلاق، وانحطاط الروابط والصلات؟

إني أنقل كلمة عن العالم النفسي السويسرى كارل يونج Karl Jung[١]، وهو رجل اتصل -بحكم مهنته محللًا نفسيًا- بألوان وأشكال مختلفة من الناس، من مجتمعات وبيئات كثيرة متباينة، فأصبح لديه ذخيرة من خبرات بالإنسان والإنسانية قلما تجمعت لشخص غيره.

يقول يونج في كتابه (الرجل الحديث يبحث عن روح):[٢]

"ليس عجيبًا في رأيي أن يجدد الرجل الحديث (العصري) عقيدته في الحياة الروحية، وأن يلتمس فيها تلك الثقة التي تنكرها عليه الحياة.

ولكن العالم الغربي الآن في موقف خطر من الناحية الروحية، وكلما عمينا عن أن نبصر الحق القاسي بأن ننظر إلى تلك الأوهام التي نتوهمها

---

(١) كارل يونج منشئ مدرسة علم النفس التحليلي Analytical Psychology.

(٢) ترجمة W.S.Dell & Cary F. Baynes – Modern Man in search of a Soul من صفحة ٣٤٥ إلى صفحة ٢٤٧ من الطبعة السادسة سنة ١٩٤١.

عن جمال الروح، زاد الموقف خطرًا. إن الرجل الغربي يحرق البخور لنفسه وقد أصبح وجهه مخفيًا عنه في دخان البخور. ولكن كيف يرانا غيرنا من الناس من ألوان أخرى؟ ماذا تعتقد الصين والهند فينا؟ أي مشاعر نثيرها في الرجل الأسود؟ ما فكرة جميع أولئك الذين نسلبهم أوطانهم، ثم نفنيهم بالحمر والأمراض السارية؟

إن لي صديقًا من الهنود الحمر، هو حاكم لمحلة، كنا نتكلم معًا بصراحة عن الرجل الأبيض، فقال لي "نحن لا نفهم البيض، إنهم دائمًا بحاجة إلى شيء، دائمًا في قلق، ودائمًا يترقبون شيئًا، ما هو؟ نحن لا نعرف، نحن عاجزون عن أن نفهمهم، إن لهم أنوفًا دقيقة، وشفاهًا قاسية رقيقة، وفي وجوههم خطوط كثيرة، إننا نعتقد أنهم جميعًا مجانين".

لقد رأى صديقي في الرجل الأبيض، الطائر الآري المتعطش دائمًا للافتراس في كل مكان، حتى في البلاد التي لا تتصل به بأية صلة.

هذا هو منظر الأوروبي إذا ما أخرج من سحب بخوره الخلقية، فلا عجب إذا أردنا أن نستخرج أجزاء الحياة الروحية الدفينة، أن ننزح أولًا المستنقع المنتن، هذه هي بداية علم النفس عندنا".

الفهرس